قضية لومبروزو

اسم الكتاب: قضية لومبروزو
اسم الكاتب: عادل سلامة
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: مروة صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 2020 /
الترقيم الدولي:

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

قضية لومبروزو

رواية

عادل سلامة

للنشر والتوزيع
Arabic Library

تجاوز البوابة الحديدية هائلة الحجم أخيرًا، دقات قلبه تتسارع شيئا فشيئا، ويشعر بمستوى الأدرينالين في دمه يتضاعف، رأسه يكاد ينفجر بسبب استيقاظه المتواصل ليلًا، وعدم قدرته على النوم ولو لدقيقة واحدة، وشعور عارم بالقلق ينهش قلبه بوحشية ويدفعه إلى التفكير جديًّا في الفرار، سيل من الأسئلة التي لا إجابة لها تعصف بذهنه وتكاد تُفقده صوابه، كيف يمكن لشخصية مسالمة مثله أن تحمل موقفا بهذه الخطورة؟ وأي ذنب اقترفه وأدّى به في النهاية إلى ذلك المأزق؟

أخذ يسترق النظر إلى أمين الشرطة المرافق له، فبعثت تلك الملامح الصارمة قدرا إضافيًّا من الانزعاج في نفسه، تابع سيره مرغمًا حتى وصل أخيرا إلى المكان المنشود، إلى حجرة مكتب السيد رئيس مباحث العاصمة.

دلف مرافقه إلى الحجرة وتركه خارجها قرابة الدقيقة، دقيقة مرّت وكأنها دهور، ثم لمحه يفتح الباب ويشير إليه بالدخول وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، ابتسامة بدت غير متناسقة على الإطلاق مع تلك الملامح.

بخطوات بطيئة مضطربة يدخل إلى الحجرة المهيبة شديدة الفخامة والاتساع، تقع عيناه مباشرة على ذلك الشخص النحيف الوقور الجالس خلف المكتب، فترتسم على وجه الأخير ابتسامة ودودة ويشير إليه بالجلوس..

- أهلا وسهلا.. اتفضل يا دكتور عمرو.

- أهلا بحضرتك

خرجت كلماته بصوت غريب متحشرج قليلا، ثم جلس متوجسا بانتظار الخطوة التالية.. لم يدم انتظاره طويلا:

- تشرب إيه؟

- ولا أي حاجة.. شكرًا

لم يلح عليه في الطلب، بدا واضحًا أنها (عزومة مراكبية) كما يقولون.

- مبدأيًا، أنا متأسف على الطريقة اللى استدعيناك بيها، أنا عارف إن جواب الاستدعاء اللي اتبعتلك على الكلية كان بالنسبالك مفاجأة غير سعيدة، بس أحب أطمنك، مفيش أي سبب للخضة اللي أنت فيها دي.

بداية جيدة ومريحة إلى حد ما، شعور بسيط بالاطمئنان يتسرب إلى نفسه..

- احنا بس محتاجين مساعدتك مش أكتر..

جملة بدت شديدة الغرابة دفعته إلى الابتسام تعجبًا:

- مساعدتي أنا؟

- أيوة.. احنا عملنا تحرّيات مفصلة عنك، والتحريات دي أكدت لنا إنك الشخص اللي بندور عليه.

أخذ يحدق في وجهه بوجوم وبداخله شعور عابر بأنه (رأفت الهجان) الجديد.. يبتلع ريقه بصوت مسموع..

لحظات من الصمت يتأمله فيها رئيس المباحث، عيناه الواسعتان ونظراته (الميري) الحادة تبدو مربكة لأقصى حد، ودخان سيجارته الخانق يملأ المكان ضبابا، يسترسل في الحديث بعد وهلة من الصمت:

– المعلومات اللي جمعناها بتأكد إنك أكفأ أساتذة علم النفس الجنائي في مصر بدون منازع، وإنك واحد من القليلين اللى قدروا يحطوا بصمتهم في المجال دة من خلال دراساتهم وأبحاثهم، أعتقد إن خبرة زي خبرتك دي لازم تُستغل كويس، خصوصا في حالات الجرائم المستعصية اللي بتفتقر لأي دليل مادي.

سكتَ للحظة ثم أردف:

– زي الجريمة اللي هاعرضها عليك دلوقتي..

تنبهت كافة حواسه فجأة، وتلاشى خوفه تماما ليحل محله الفضول والتركيز، الأمر لا يعدو مجرد استشارة مهنية، فلم يعد هناك أي داعٍ للاضطراب.

– اتفضل يا فندم، أنا سامع حضرتك كويس..

قالها بمزيج من الجدية والشغف.

استنشق الرجل نفسًا عميقًا من سيجارته ولم ينفثه، ليزداد وجهه احتقانا ويحمرَّ بياض عينيه على نحو ملحوظ.

– الموضوع بدأ من أسبوعين بالظبط، لما وصلنا بلاغ من صاحب استراحة (الأمل) الموجودة على طريق مصر إسكندرية الصحراوي، البلاغ بيفيد بإنه في أثناء قيام أحد عمال الاستراحة بتنضيف دورات المياة حوالي الساعة 10 مساء، عثروا على جثة بنت في أوائل العشرينات مصابة بجرح قطعي في الرقبة.

توقف للحظة عن الحديث ليستشف تأثير كلماته، إلى الآن لا يوجد شيء خارج عن المألوف، مجرد جريمة قتل عادية.

- البنت ما كانش معاها أي إثبات شخصية، فبدأ فريق البحث يتحرى عنها من عُمال الاستراحة، محدش كان عارفها بالاسم، لكن أقوالهم كانت تقريبا متطابقة، كلهم أجمعوا إنها بدأت تتردد على الاستراحة من قبل الجريمة بحوالي شهر، كل يوم في نفس الميعاد تقريبا، وكان بيظهر معاها دايما خمس أشخاص، كان واضح جدا من طريقة حوارهم ومن المواضيع اللي بيتكلموا فيها إنهم زمايل شغل، في البداية شكينا في كلام عمال الاستراحة، خصوصا إن مفيش أي دليل مادي بيؤيده، لكن لحسن الحظ إن الجنايني بتاع الاستراحة كان حافظ نمر الميكروباص اللي بيوصلهم، لأنه بيركن قدامه كل يوم، وبالبحث في إدارة المرور تبين إن الميكروباص تابع للبنك الوطني – فرع إسكندرية، بديهيًّا قدرنا نستنتج إنه بيُستخدم لتوصيل موظفين البنك اللي ساكنين في أماكن بعيدة عن مقر عملهم.

توقف الرجل عن الحديث عندما لاحظ أن سيجارته قد أوشكت على الانطفاء، فسحب النَفَس الأخير منها ببرود واستمتاع غير مبالٍ بنظرات الفضول التي تحدَّق في وجهه، ثم أطفأها وأشعل الأخرى سريعا مواصلا الاستطراد..

- كانت المفاجأة الكبيرة أن الميكروباص عمل حادثة في نفس اليوم اللي حصلت فيه الجريمة، الحادثة حصلت حوالي الساعة 6 يعني بعد ما الميكروباص طلع من الاستراحة بحوالي نص ساعة، واضح إن السواق كان

مسرع جدا، واختل توازنه أو اتفاجئ بأي حاجة قدامه واتصرف بغباء، الخلاصة إن الميكروباص اتقلب 4 مرات ورا بعض وبقى خردة طبعا.

- والركاب؟؟

ابتسم الرجل بتهكم ولم يرد..

- ماتوا؟؟

قالها الدكتور عمرو بصوت منزعج.

- يا ريت..

رد رئيس المباحث بعفوية.. ثم استدرك بحرج:

- أنا مش بتمنى موتهم طبعا، الأعمار بيد الله، أنا أقصد إن موتهم كان ممكن يقفل القضية والكل يرتاح، لكن اللي حصل لهم فعلا كان شيء أغرب من الخيال.

لم ينتظر الاستفهام من الدكتور عمرو وتابع سريعا:

- تلاتة منهم أصيبوا بغيبوبة كاملة، الإصابات ما كانتش سهلة وأثّرت على أعضاء كتير في جسمهم، التلاتة دول بالذات عشان يعيشوا محتاجين شبه معجزة.

- والاتنين التانيين؟

ارتسمت ابتسامة باهتة على وجه رئيس المباحث، ثم هز كتفيه دلالةً على قلة الحيلة وأردف:

- فقدوا الذاكرة.

اتسعت عينا الدكتور عمرو من غرابة الموقف، وأطرق برأسه قليلا وظهرت ابتسامة تعجب ممتزجة بالأسف على وجهه، ثم لاحظ أن الرجل يهم بالحديث فرفع وجهه إليه سريعا:

- الاتنين دول بصراحة أغرب ما في الموضوع، إصابتين بفقدان الذاكرة في حادثة واحدة أمر مش بيتكرر كل يوم، بس احنا اتأكدنا كويس إن الإصابات حقيقية وما فيهاش أي تمثيل أو ادعاء.

- بعد إذن حضرتك، يعني أنا ملاحظ انكم مركزين أوي مع زمايل الضحية وكأنكم متأكدين إن القاتل منهم، ليه عمال الاستراحة مش داخلين في دايرة الاتهام دي، وليه مش طرف تالت أصلا؟

- لسببين، السبب الأول اللي ممكن يكون مش كافي لكنه يظل علامة استفهام، المجموعة دي اتعودت تروح وتيجي من الشغل كل يوم مع بعض، إيه اللي يخليهم في اليوم دة بالذات يمشوا ويسيبوا زميلتهم لوحدها في الاستراحة؟ يعني لو ملهمش علاقة بالموضوع، فالطبيعي إنهم يستنوا لحد ما تروح معاهم زي كل يوم.

- ممكن يكونوا اتعرضوا لأي تهديد مثلا؟

- ساعتها كان التصرف الطبيعي إنهم يتصلوا يستنجدوا بأي حد، الشرطة مثلا أو أهل البنت، احنا راجعنا موبايلاتهم ما لقيناش ولا واحد فيهم عمل أي مكالمة في التوقيت ده.

همّ الدكتور عمرو بالحديث مرة أخرى لولا أن رفع الرجل يده بملل وبشيء من ضيق الصدر لمنعه من الاسترسال:

– أنا قلت من الأول إن السبب دة ممكن يكون مش كافي، فبلاش نطول في الكلام عنه أكتر من كدة..

أومأ الدكتور عمرو برأسه بشيء من الحرج وابتلع أسئلته بصعوبة ثم تابع:

- والسبب التاني؟

- الشهود، ودي أكتر نقطة محيرة في الموضوع كله، وبصراحة دي النقطة اللي خلتنا نفكر نستعين بيك.

شعر الدكتور عمرو بالتوتر حينما شعر أن دوره قد حان، وتذكر فجأة أن بحوزته مفكرة صغيرة يستخدمها أحيانا لتدوين ملاحظاته، فأخرجها من جيبه بسرعة وبدأ ينصت بشيء من التحفّز.

- الشهود اللي كانوا موجودين وقت الحادثة كانوا معروفين بالاسم بالنسبة لعمال الاستراحة لأنهم بيترددوا على المكان من سنين، هما خمس أفراد برضو بيشتغلوا موظفين في الهيئة العامة للآثار، وساكنين في أماكن مختلفة على الطريق بين القاهرة وإسكندرية، ومواعيد انصرافهم من شغلهم هي نفس مواعيد انصراف المشتبه فيهم ودة اللي بيخليهم متواجدين معاهم في الاستراحة في نفس التوقيت تقريبا..

- معلش يا فندم من غير ما أقاطع حضرتك بس فيه جزئية معينة عايز أتكلم فيها قبل ما انسى.

- اتفضل

- إيه اللي يخلي موظفين البنك اللي ساكنين في القاهرة يشتغلوا في إسكندرية أصلا؟ مش شايف حضرتك إنها حاجة مريبة شوية؟

مط الرجل شفتيه بعدم اكتراث ثم أردف:

- لأ دي مسألة عادية، البنوك في أحيان كتير بتنتدب موظفين ليها في أماكن بعيدة عشان عندهم خبرة، وطبعا بتصرفلهم بدلات محترمة.

- تمام.

رد الدكتور عمرو بشيء من الاقتضاب. بدا أن الرجل لم يعط اهتمامًا للاستفسار السابق وأكمل حديثه:

- بدأنا نستدعي الشهود وناخد أقوالهم، كلهم ادَّعوا أنهم ميعرفوش حاجة عن الجريمة، لكنهم أجمعوا إنهم شافوا البنت وهي بتدخل الصالة اللي في آخرها دورات المياه، صالة صغيرة مساحتها متتعداش 6 مترو متعلق على مدخلها ستارة قماش، بس طبعا محدش شافها بتخرج بعد كدة ولا حد فكر أصلا في سبب تأخيرها، سألناهم عن أول واحد شافوه بيدخل صالة الحمام بعدها، والإجابات كانت مفاجأة..

ابتلع الرجل ريقه للحظة وأخذ يتأمل الدكتور عمرو المنهمك في الكتابة، حتى انتهى الأخير من تدوين ملاحظاته ورفع بصره إليه.. فأكمل:

- عرضنا صور الخمس أفراد المشتبه فيهم على كل واحد من الشهود الخمسة على انفراد، وكانت النتيجة المذهلة إننا سمعنا خمس إجابات مختلفة، كل شاهد قال اسم مختلف تماما عن التاني، وبكدة بقى كل واحد من الخمسة المشتبه فيهم قصاده شاهد بيقول إنه أول حد دخل صالة الحمام بعد البنت على

طول، إجابات كلها مؤكدة ومافيهاش أي نوع من التردد، لدرجة إننا واجهنا الشهود ببعض على أمل إن أي حد فيهم يفكر التاني بأي علامة تخليه يغير رأيه، لكن النتيجة سلبية، كل شاهد مصمم على رأيه ومعندوش أي استعداد للنقاش أو التفاهم.

أنهى الرجل حديثه، فساد الصمت المشوب بالحيرة قرابة الدقيقة، ثم بادر الدكتور عمرو بالكلام:

– طيب بعد إذن حضرتك.. أنا عندي أسئلة كتير.

تراجع الرجل في مقعده ثم قال:

- ممكن أجاوبك عليها من غير ما تسأل على فكرة.

لم ينتظر الرجل رد الدكتور عمرو واستطرد سريعا:

- واحد، مفيش أي علاقة تربط بين الشهود والمشتبه فيهم، عمال الاستراحة أكدوا إن التعامل بين الطرفين كان في أضيق الحدود وماكانش بيحصل بينهم حوار إلا نادرا.

اتنين، عشان قلبك يرتاح بس، عمال الاستراحة مش خارج نطاق الاتهام ولا حاجة، احنا حطيناهم تحت عنينا كويس وعيننا مراقبة مشددة على كل واحد منهم. والشهود نفسهم داخل دايرة الشك.

تلاتة، مفيش أي دليل مادي، مفيش أي بصمات في مسرح الجريمة وسلاح الجريمة نفسه مختفي وكذلك شنطة البنت، اللي غالبا كانت سيباها في الميكروباص وحد سرقها بعد الحادثة. وبالمناسبة السواق مالوش دعوة بأي حاجة ومعندوش أي معلومات، لأنه اتعود إنه يرتاح من الطريق في

الميكروباص وما كانش بيدخل الاستراحة أصلا.

أربعة، الشهود، والمشتبه فيهم، وعمال الاستراحة، التلات أطراف دول مفيش حد فيهم عنده سابقة واحدة بل بالعكس، دول ناس مشهود لهم بالسمعة الطيبة والسيرة الحسنة جدا.

خمسة، علاقة البنت بزمايلها، وهل حصل بينها وبينهم أي مشاكل أو خلافات قبل الحادثة؟ الإجابة الظاهرة لأ، عمال الاستراحة والشهود أكدوا إنهم كانوا بيتكلموا وبيضحكوا بصورة طبيعية جدا ومحصلش بينهم أي مشادات.

- ما سألتوش أي حد من زمايلهم في البنك عن طبيعة علاقتهم ببعض؟

- لأ، الموضوع يعتبر سري إلى حد ما وهاعرفك سبب السرية دي.. خلصت أسئلتك؟

- لأ.. لسة فيه سؤالين..

- اتفضل.

- ليه ما تكونش الجريمة دي حصلت بعد ما المشتبه فيهم والشهود روحوا؟ يعني ممكن تكون البنت معرفة زمايلها إنها مش هتروح معاهم وبالتالي زمايلها سابوها لوحدها ومشوا، ولما دخلت الحمام اتأخرت شوية وخرجت منه والاستراحة فاضية وبعد فترة دخلت تاني، ساعتها القاتل هيكون طرف غير معروف.

- الإجابة سهلة جدا، صاحب الاستراحة مركب كاميرات على مدخلها كنوع من الاحتياط، عشان لو حد فكر يسرقه بالإكراه أو يعتدي عليه،

بمراجعة الكاميرات دي تبين إن مفيش أي حد دخل الاستراحة بعد الشهود والمشتبه فيهم، اليوم دة كان يوم تلات مش خميس ولا جمعة وحركة السفر كانت ضعيفة والضغط على الاستراحة مكانش كبير، عمال الاستراحة نفسهم أكدوا الكلام دة، مع ملاحظة إنهم مشافوش البنت بعد ما زمايلها مشيوا وكانوا مفكرين إنها روحت معاهم.

حاول الدكتور عمرو أن يهضم تلك الإجابة، ثم أغمض عينيه في محاولة لاستعادة صفاء ذهنه بعد كل هذا الكم من المعلومات المركبة.

– والسؤال التاني..

سأله الرجل بصوت حازم.

استفاق الدكتور عمرو سريعا من محاولة الاسترخاء الفاشلة ثم أردف:

- ليه افترضتوا إن الجاني هو أول حد دخل صالة الحمام بعد القتيلة مباشرة؟ ليه مش أي حد دخل تاني بعد كدة؟

تنهد الرجل بصبر قبل أن يرد:

- الطبيعي إن البنت هتفضل في الحمام من خمس لعشر دقايق تقريبا وبعد كدة هتخرج، ولو فيه أي حد دخل الحمام الرجالي بعد كدة فده معناه إنه هيقضي نفس الوقت تقريبا، في الحالة دي مستحيل الجاني يخاطر وينفذ جريمته لسببين، لأنه هيخاف إن الشخص اللي في الحمام الرجالي يخرج فجأة فيشوفه وهو داخل للبنت، وهيخاف كمان إن البنت تصرخ أو تعمل أي صوت فيسمعه الشخص دة، خصوصا إن الحمَّامين لازقين في بعض، ودة المعتاد في الأماكن اللي زي دي، يبقى السيناريو المنطقي إن القاتل يدخل ورا البنت

وينفذ جريمته بس بعد أما يتأكد إن مفيش حد في الحمام الرجالي.

- بس ممكن أي حد يدخل الحمام الحريمي بعد المجني عليها علطول ويكتشف اللي حصل، ازاي الجاني ما فكرش في النقطة دي؟ خصوصا إنه هيكون أول المشتبه فيهم؟

- أمر مستبعد شوية، لاحظ إن مفيش أي ستات في الاستراحة، وعدد الرجالة الموجودين مش كبير لدرجة إنهم يدخلوا حمام الستات عشان يخففوا الزحمة.

الإجابة تبدو مقنعة إلى حد ما.. ولكن الأمر يخضع لعدد لا نهائي من الاحتمالات.. يعود الدكتور عمرو مرة أخرى للسؤال بتردد:

- بس ايه اللي يخلي زمايل البنت يمشوا ويسيبوها وهية لسة ما خرجتش من الحمام؟ يعني المفروض يستنوها عشان يعرَّفوها إنهم ماشيين مثلا.

- احنا منعرفش إيه اللي حصل بالظبط، لكن كل شيء ممكن، ممكن تكون البنت قايلالهم إنها مش هتروح معاهم وفيه حد تاني هييجي ياخدها مثلا، وممكن الجاني بعد ما قتلها قال لزمايله إنها مش هتروح معاهم لأي سبب، كلها احتمالات قابلة للصواب أو الخطأ، لكن عمرنا ما هنقدر نعرف الحقيقة بالظبط إلا لو حد فيهم فاق أو رجعتله ذاكرته.

الصمت المعتاد يسود، يفتح الدكتور عمرو صفحة بيضاء جديدة من مفكرته الصغيرة، ويراوده شعور قوي بالإرهاق بعد أحداث هذا اليوم الطويل ولكن يبقى ذهنه متّقدًا..

- ممكن أعرف إيه المطلوب مني بالظبط؟

- باختصار، مساعدتنا في الوصول للجاني، بالطريقة اللي تناسبك أنت واللي هتشوف إنها هتفيدك في شغلك وهتحقق نتيجة إيجابية، متهيألي جه الوقت اللي ممكن تطبق فيه كل معلوماتك وخبرتك الأكاديمية في التحليل الجنائي على أرض الواقع، أنا شرحتلك الموضوع بالتفصيل، وأظن إنه بقى واضح جدا إنها جريمة مش عادية، احنا بندور على إبرة في كومة قش، وأنا مش بطلب منك إنك تلاقي الإبرة دي، بس على الأقل مساعدتك ممكن تخلينا نقلل الخيارات المتاحة قدامنا أو ندور في اتجاه معين، أنت معاك كل الصلاحيات الممكنة وتقدر تستعين بأي حد متخصص بشرط تكون واثق فيه، لأن زي ما قلت لك الموضوع حيوي وبالغ السرية.

- بس حضرتك ما قلتش سبب السرية المبالغ فيها دي؟

قطب الرجل حاجبيه بشدة حتى كادا يلتقيان ثم أطرق برأسه لعدة ثوان، لحظات مرت بطيئة للغاية على الدكتور عمرو الذي شعر بالندم من إلقاء هذا السؤال.

رفع الرجل بصره بعد فترة لينظر في عيني الدكتور عمرو مباشرة ويواصل الحديث:

- البنت اللي اتقتلت دي مش مجرد موظفة بنك، دي تبقى بنت السيد مساعد وزير الداخلية، يعني فيه احتمال قوي إن هوه اللي يكون مقصود بالجريمة دي، عشان كدة الموضوع اتحول لمباحث أمن الدولة للتحقيق فيه، وهو بصفته رئيسي وصديق شخصي ليا طلب مني إني أتولى التحقيقات بنفسي، والسرية دي طبعا كانت بناءً على رغبة معاليه، يعني الصحافة والإعلام

معندهمش أي فكرة عن اللي حصل، وطبعا مفيش أي حد من زمايل الضحية في البنك يعرف حاجة، ولما سألوا عنها بلغناهم إنها سافرت تتعالج برا. سكت الرجل للحظة ليبتلع ريقه ثم أضاف:

- أما بخصوص المشتبه فيهم، فمفيش أي تهم اتوجهت ليهم لحد دلوقتي بسبب التناقض الواضح في شهادة الشهود، وهما حاليا محتجزين في المستشفى بسبب حالتهم الصحية السيئة، لكن لو حالتهم استقرت هتتعقد الأمور أكتر لأنهم هيطالبوا بالخروج، وهيبقى صعب إننا نمنع أي حد من الخروج طالما مفيش دليل مادي يخلينا نتهمه.

أنهى الرجل حديثه ونظر إلى ساعته، فرفع حاجبيه كدلالة على تأخر الوقت، فمد يده سريعا في درج مكتبه وأخرج "دوسيه" مليئا بالمستندات ووضعه على الطاولة أمام الدكتور عمرو مباشرة.

- دة ملف القضية، فيه كل المعلومات اللي شرحتهالك، لكن بتفصيل واستفاضة، تقدر تاخده معاك لأن كل الأوراق اللي فيه دي صور طبعا مش أصول، وهستناك تبلغني باقتراحاتك خلال 24 ساعة.

نهض الرجل من مقعده بدون أن ينتظر رد الدكتور عمرو أو يسمع مزيدًا من استفهاماته، ثم مد يده إليه مصافحا وعلى وجهه شبح ابتسامة.

- بالتوفيق إن شاء الله.

وكانت هذة الجملة تعني أن الاجتماع قد انتهى.

عاد إلى منزله أخيرا، ليجد زوجته غافية على الأريكة بالصالة، من الواضح أنها ظلت تنتظره بقلق حتى غلبها النعاس، كاد يهم بإيقاظها ثم تراجع لكيلا يزعجها، ولكيلا تزعجه هي بمزيد من الأسئلة عن سبب استدعائه، بدَّل ملابسه ثم ذهب إلى فراشه بإنهاك، وبمجرد أن وضع رأسه على الوسادة أيقن تماما أنه لن يستطيع النوم بسهولة، ولن يتمكن حتى من الاسترخاء مع كل ما يدور بذهنه من أسئلة وما يعصف بقلبه من توتر وانفعال، نهض من فراشه بعد فترة قصيرة من الاستلقاء واتجه نحو حجرة المكتب، أضاء نور الأباجورة الخافت، وبدأ يفتح ملف الجريمة باحثا عن مزيد من المعلومات.

الملف كان يحوي صورًا وبيانات مفصلة عن المشتبه فيهم، بالإضافة لمحاضر استجواب الشهود وعمال الاستراحة وبعض البيانات الروتينية الأخرى، شعر بالفضول لمعرفة مزيد عن المشتبه فيهم، ولاحظ أن لكل منهم صفحة خاصة به تحوي صورته الشخصية وبياناته الأساسية وتقرير طبي مختصر عن إصابته، فبدأ الاطلاع على تلك المعلومات بشيء من التروي.

الصفحة الأولى: الصورة لرجل عريض الوجه حاد الملامح، واسع العينين، لديه بروز واضح في عظام الجبهه والوجه وحواجب غزيرة تميل للالتقاء، شفتاه ممتلئتان إلى حد ما، ولديه أنف طويل وأذنان كبيرتان بشكل واضح.

البيانات الأساسية: محمد ناجح – موظف ائتمان – 43 سنة – متزوج ولديه طفلة عمرها تسع سنوات.

التقرير الطبي: كسر في الحوض – كدمات بأجزاء متفرقة من الجسم – نزيف شديد في البطن استدعى تدخلًا جراحيًّا عاجلًا واستئصالًا للطحال – سبب الغيبوبة حدوث عدوى مفاجئة وتسمم في الدم بعد إجراء العملية.

الصفحة الثانية: الصورة لرجل أصلع مستدير الوجه، له ذقن صغيرة وفم كبير وعينان خضراء ولحية خفيفة.

البيانات الأساسية: إبراهيم مغاوري – مسئول خدمة عملاء – 36 سنة – أعزب.

التقرير الطبي: جروح وكدمات، خلع في الكتف الأيمن، إصابة مباشرة في الفص الأمامي للمخ أدت إلى فقدان الذاكرة.

الصفحة الثالثة: صورة رجل كثيف الشعر، له وجه طويل نحيف وجبهة صغيرة منحدرة، ولديه بعض البثور في الوجه والجبهة، قمحي اللون.

البيانات الأساسية: أحمد الدالي – صراف – 28 سنة – أعزب.

التقرير الطبي: كسر في الذراع الأيسر، كدمات وجروح بالجسم والوجه، كسر بالجمجمة ونزيف بالمخ أدى إلى حدوث غيبوبة تامة.

الصفحة الرابعة: صورة لرجل أشيب الشعر – كبير الأذن – جاحظ العينين – مجعد الوجه – له شارب كثيف.

البيانات الأساسية: هاني الشربيني – رئيس قسم – 58 سنة – متزوج ولديه بنتان وولد.

التقرير الطبي: كسر في الأنف – جرح قطعي غائر في الصدر – شرخ في الساق اليسرى – كدمات بالنصف العلوي من الجسم – سكتة قلبية استمرت

لمدة 20 دقيقة قبل الإنعاش مما سبب حدوث تلفيات في خلايا المخ أدت إلى غيبوبة.

الصفحة الخامسة: صورة رجل نحيف الوجه، لديه صلع خفيف في مقدمة رأسه، يرتدي نظارة طبية سميكة، غائر العينين، صغير الفم والأنف، أبيض البشرة.

البيانات الأساسية: مجدي الهندي – صراف – 40 سنة – متزوج ولا يعول.

التقرير الطبي: إصابات بالفقرة الرابعة والخامسة بالعمود الفقري – كسر في الكاحل – جروح في الوجه والذراعين – كدمات – ارتجاج بالمخ أدى إلى تكوّن تجمعات دموية على الأعصاب ومن ثم فقدان الذاكرة.

الصفحة السادسة: عبارة عن صورة لقطعة حديدية كبيرة الحجم غريبة الشكل، استغرق الأمر منه قرابة الدقيقة حتى يستوعب أن هذه هي صورة (الميكروباص) بعد الحادث.

تابع التصفح متجاهلا بعض الأوراق الأخرى مثل البلاغ المقدم من صاحب الاستراحة ومحاضر الانتقال إلى مكان الجريمة وصور القتيلة وخلافه، حتى وصل إلى الجزء الخاص باستجواب الشهود، توقف كثيرا عند هذه الجزئية، مازال لم يهضم بعد ذلك التضارب النادر في شهادة الشهود وإصرارهم على أقوالهم، حاول أن يبحث بشيء من التأنّي في شهادة عُمّال الاستراحة، فلم يجد ما يبحث فيه أصلا لكونهم يزعمون أنهم لم يلحظوا واقعة دخول الفتاة إلى دورة المياة من الأساس.

أغلق الملف ثم أغمض عينيه وأخذ يفكر بعمق، أصبحت كل خيوط القضية واضحة أمامه الآن، وأمامه أربع وعشرون ساعة لوضع خطة ما، تحوم برأسه بعض الأفكار العشوائية التي لا يمكن أن يطلق عليها خطة عمل، لكنها تبدو جيدة إلى حد ما كبداية، ذلك الطالب النابغ الشغوف بداخله يعود للحياة مرة أخرى بقدر كبير من التحدي وبإصرار على تقديم النفع للغير بما يحمله من علم، تذكر أن رئيس المباحث قد أعطاه إمكانية الاستعانة بأي زميل بشرط السرية، لم يفكر كثيرا في اختيار الأسماء، بل كان الأمر محسوما بالنسبة له تقريبا، راوده شعور بقليل من الارتياح عندما أدرك أن المسئولية لن تُلقى بكاملها على كاهله، وعقد العزم على عرض الأمر عليهم في الصباح الباكر، أما الآن فقد حان الوقت للدخول في سبات عميق.

- إن الجريمة بمفهوميها القانوني والاجتماعي، هي حصيلة عوامل فردية واجتماعية، بمعنى أن من يرتكب الجريمة هو الفرد، ولكنه لا يعبر في هذا الفعل عن فرديته فحسب، بل عن بناء شخصيته المتكونة من امتزاج المؤثرات الاجتماعية بهذه الفردية.

سكت للحظة كي يستجمع أفكاره ويتابع تأثير كلماته على الطلبة الحاضرين الذين بدأ الملل يكسو ملامحهم، ثم أردف:

- لذلك، فإن الاتجاه السليم في دراسة ظاهرة الجريمة، لا يجوز أن يقتصر على بحث العامل البيولوجي أو الاجتماعي أو النفسي، وإنما يجب اتباع المنهج التكاملي الشامل للثلاثة أبعاد السابقة، وعليه فإن علم الإجرام يتفرع وفق ما سبق إلى ثلاثة علوم..

- علم البيولوجيا الجنائية المختص بدراسة العوامل البيولوجية.
- علم النفس الجنائي المنطوي على دراسة العلوم النفسية.
- علم الاجتماع الجنائي الذي يشمل دراسة العوامل الاجتماعية.

توقف عن الحديث ونظر إلى ساعته ثم ابتسم ابتسامة قصيرة وتابع:

- ودة اللى هنتكلم عنه بالتفصيل في السيكشن الجاي إن شاء الله.

نهضوا جميعًا من أماكنهم وبدءوا بالخروج تباعا، وظل منتظرًا للنهاية كعادته حتى يتأكد من خروجهم جميعًا ومن عدم رغبة أي طالب في سؤاله عن أيّة جزئية غير مفهومة في الشرح، لم تمرّ سوى ثوانٍ معدودة حتى وجد نفسه وحيدا في القاعة فأسرع يغادر المكان، وبمجرد خروجه من القاعة رآها.

ياسمين، زميلته المعيدة في القسم نفسه، وزميلته السابقة في الدفعة نفسها، يعرفها منذ عدة سنوات تقريبا، ويراها عدة مرات في اليوم الواحد، وكلما رآها شعر أنها المرة الأولى التي يقع بصره عليها، تتسارع دقات قلبه بصورة مفاجئة، وتتصلب عيناه على ملامحها الجميلة الهادئة لتروي ظمئًا لا ينتهي، مشاعره الحبيسة تتحرك، بل تفور كبركان ثائر، ولكنه ذلك الخجل اللعين الذي منعه فيما مضى من مصارحتها ومازال يمنعه الآن، حتى بعدما تم تعيينها معه في القسم نفسه وأصبحت تجمعهما حجرة مكتب مشتركة، مازالت مشاعره تجاهها تقف أمامه كحاجز يمنعه من التعامل معها بصورة طبيعية، وتجعل لسانه يتلجم كلما همَّ بإلقاء السلام عليها، ووجهه يصير كألوان الطيف إذا حادثته صدفة، ونظراته تنبطح أرضًا إذا التقت عينه بعينها.

أهو يحلم الآن أم يتخيل، أم أنها حقا تأتي نحوه مبتسمة..

- إزيك يا أستاذ أحمد.
- أهلا وسهلا.

الرد التلقائي الطبيعي الذي تبادر إلى ذهنه.

- كنت عايزاك في موضوع يخصنا احنا الاتنين.

قالتها بشيء من الصراحة فتوقف قلبه عن الخفقان، كان أول ما فكر فيه أن يكون هناك من لاحظ نظراته المختلسة إليها وأخبرها بذلك، فقررت هي أن تضع لذلك حدًّا وأن تلقي على مسامعه بعض الكلمات المحرجة، يبدو الموقف ثقيلا سخيفا لأقصى درجة، قطع استرسالها في الكلام حبل أفكاره..

- الدكتور عمرو حلمي اتصل بيا النهاردة الصبح، وطلب مني إني أروحله البيت ضروري وبأقصى سرعة ووصفلي العنوان، وقاللي إنه عايزك تيجي معايا.

تنفَّس الصُّعداء بصوت مسموع، ثم ما لبث أن شعر بشيء من الاستغراب، للمرة الأولى يطغى إحساسه بالفضول والاهتمام على خجله.

- ما تعرفيش إيه السبب؟

- لا، بس كان واضح إنه مستعجل وإن الموضوع مهم جدًّا، دة كمان طلب مني إن محدش يعرف حاجة عن المقابلة دي.

قطب حاجبيه بقلق، ما ذلك الأمر الذي يرغب الدكتور عمرو في إخفائه؟ أهو موضوع شخصي أم مهني؟

- أنت معاك عربية مش كدة؟

- أيوة معايا.

- معلش بقى هتوصلني معاك..

قالتها بلهجة يشوبها المرح.

معلش؟ ترددت الكلمة في أذنيه كثيرا، عَلامَ تعتذر؟ على منحه تلك اللحظة التي حلم بها دهرًا؟ لحظة الاقتراب منها أكثر، أم على إعطائه فرصة لا تعوض للانفراد بها بدون وجود متطفلين؟

- لا أبدًا، تحت أمرك، أنتِ خلصتي سكاشن النهاردة؟

- آه خلصت من بدري.

- وأنا كمان.

رافقته إلى السيارة بعدما وصفت له العنوان بالتفصيل، أخذ يحسب المسافة المحتملة في ذهنه للوصول لوجهته فقدرها بحوالي ساعة، أكثر الساعات أهمية في حياته على الإطلاق، بدأ يجوب الشوارع المزدحمة إلى حد ما، عيناه تركزان في تفاصيل الطريق وعقله يبحث كالحاسوب عن سؤال يصلح لفتح حديث معها، من غير المعقول أن يظل صامتا طوال هذه المدّة.

- تفتكري إيه الموضوع الطارئ اللي عايزنا فيه الدكتور عمرو؟

بدا هو السؤال الوحيد المناسب في هذه اللحظة.

- مش عارفة، أنا الحقيقة مستغربة جدًّا، بس إحساسي إنها حاجة ملهاش علاقة بالشغل، يا خبر بفلوس.

هز رأسه موافقا، وبدأ البحث المرير مرة أخرى عن موضوع صالح للمناقشة..

- آآآ.. وأنتِ أخبار الماجستير بتاعك ايه؟

- تمام الحمد لله.

ردَّت باقتضاب مصحوب بابتسامة مصطنعة. لم يشجعه ردها الجاف على الاستمرار في الحديث، من المؤكد أنها تشعر ببعض الحرج لوجودها معه بدون مرافق، هو لن يرهق نفسه ويرهقها بمزيد من الأسئلة بعد الآن، ربما عليه أن يستمتع بقربها منه فحسب. الدقائق تمر جميلة، لا يمكن وصفها سوى بتلك الصفة، يشوبها قليل من التنهيدات بصبر من جانبها، وكثير من اختلاس النظر بمهارة من جانبه، الصراع يحتدم بداخله بين الرغبة العارمة في تبادل الحوار معها وبين عدم قدرته على ذلك من جهة، والخوف من عدم تقبلها لذلك من

جهة أخرى، كعادة الأوقات السعيدة مرت الساعة سريعا، ووصلا أخيرا إلى المكان المنشود.

استقبلهما الدكتور عمرو بابتسامته الأبوية المحببة..

- يا أهلا بالشباب.
- أهلا بحضرتك يا دكتور..

قالاها بصوت واحد تقريبًا.

- اتفضلوا في أوضة المكتب.

انتهى الدكتور عمرو من شرح كافة تفاصيل الحادث، ثم أخذ يتأمل تلك العيون التي تحدق فيه بحيرة غير فاهمة طبيعة دورها.

- كنت حابب أعرف رأيكم في اللي سمعتوه، اتفضل يا أحمد.

تنحنح أحمد الذي اندمج في أحداث الجريمة تماما ونسي مشاعره الجياشة مؤقـتًا:

- جريمة غريبة فعلا، أول مرة أسمع عن جريمة ما فيهاش دليل مادي واحد أو حتى طرف خيط، أكتر حاجة مستغربها إن كل الشهود لمحوا البنت وهي داخلة الحمام ودي حاجة مريبة شوية، لكن ممكن يبقى تفسيرها إنها بنت واحدة وسط أكتر من عشر رجالة؛ فأكيد حركتها باينة وملفتة للنظر. عموما أنا شايف إن التحليل النفسي ممكن يساعد في استبعاد بعض المشتبه فيهم، لكن مينفعش إني أوجه الاتهام لحد بناء على نظريات علمية، أقصد إننا في كل الأحوال هنحتاج دليل مادي عشان نثبت التهمة على المجرم.

قطب الدكتور عمرو حاجبيه، يبدو كلام أحمد منطقيًّا إلى حد كبير.

- يعني أنت شايف إن التحليل النفسي لأطراف الجريمة مجرد خطوة؟ طيب بفرض إننا وصلنا للجاني فعلا، لكن ما لقيناش الدليل؟

ابتسم أحمد بتهكم ثم أردف:

- ساعتها هيكون من الأفضل عدم الإعلان عن اسم المتهم، لأن المتهم دة لو وكِّل أصغر محامي في مصر هيجيبله البراءة من أول جلسة، ولو عرف ن حضرتك اتهمته بِناء على تحليلات نفسية احتمال يطالبك بتعويض.

ابتسم الدكتور عمرو رغما عنه، تدخلت ياسمين للمرة الأولى في الحوار بدون أن تبتسم:

- بعد إذنكم يا جماعة أنا ليا رأي، حضرتك يا دكتور لو قدرت تستبعد أي مشتبه فيه، فدة يعتبر إنجاز كويس، لأنك هتضيق نطاق البحث بالنسبة للجهات الأمنية وهتسهل مهمتها، وفي كل الحالات هما المسئولين في الأول والآخر إنهم يلاقوا الأدلة مش حضرتك.

همَّ أحمد بالرد لولا أن تدخل الدكتور عمرو بسرعة ليمنع مزيدًا من الجدال في تلك النقطة:

- أنا في كل الحالات معنديش رفاهية الرفض، أنا قبلت المهمة ولازم أكمل فيها حتى لو نتايجها ما كانتش مرضية.

سكتوا جميعًا، فالتفت الدكتور عمرو نحو أحمد مرة أخرى..

- طيب لو فرضنا يا أحمد إنك اتكلفت بالمهمة دي، هتبدأ منين؟

- أكيد أول حاجة هاعملها هي إعادة استجواب الشهود وعمال الاستراحة، طبعا حالة المشتبه فيهم الصحية ما تسمحش بأي استجواب، لكن ممكن إعادة استجواب الشهود بشكل علمي يخليني أعرف مين منهم صادق في كلامه ومين بيكذب، ومين فيهم أقدر أعتمد على شهادته أو أستبعدها.

هز الدكتور عمرو رأسه موافقا، ثم حول بصره باتجاه ياسمين التي كانت مستغرقة في متابعة الحوار باهتمام..

- وأنتِ يا ياسمين؟

- أكيد موافقة على اللي قاله أحمد، لكن فيه حاجة كمان ممكن أضيفها.

تركزت العيون عليها بتساؤل، فاستطردت بحماسة:

- ممكن أجمع بيانات أكتر عن بيئة المشتبه فيهم ونشأتهم، سلوكهم في مرحلة الدراسة وأحوالهم المادية، علاقتهم بجيرانهم و..

رفع الدكتور عمرو يده بحزم فتوقفت ياسمين عن الحديث بقليل من الحرج:

- واضح إنك نسيتي شرط السرية، كدة الموضوع هيتعرف ولو ما اتعرفش هيعمل بلبلة كبيرة، إنتِ مش بتعملي فيلم تسجيلي عن قصة حياة ممثل، والناس اللي هتعملي تحرياتك معاهم عمرها ما هتفهم طبيعة شغلك وأكيد هتفسره غلط، ومش بعيد أبدًا إن الشخص اللي بيعمل التحريات يتعرض للخطر.

خفضت ياسمين بصرها بخيبة أمل، فابتسم الدكتور عمرو بحنان ثم تابع:

- أنا فاهم طبعا دور البيئة الاجتماعية في تشكيل شخصية المجرم، وعارف كويس إيه هي الصفات اللي بتدوري عليها في المشتبه فيهم، الصفات دي هتقدري توصلي ليها فعلا لو فكرتي تسألي الناس اللي حواليهم، واللي بتختلط بيهم بشكل مستمر، لكن احنا محكومين بشروط معينة في عملية التحقيق ومش عايزين نخل بيها.

استغرق الدكتور عمرو في حديثه، بينما كان أحمد يثبت بصره على ياسمين بإعجاب، يشعر أنه يرى فيها جمالًا من نوع آخر، جمال العقل، تلك الجدية

وتلك الحماسة تضيفان إلى شخصيتها الجذابة كثيرًا. يرفع الدكتور عمرو نبرة حديثه ليخرجه مرغما من شروده ..

- على فكرة يا ياسمين، أنا ممكن أستفيد من فكرتك، فكرتك أساسها إني أجمع معلومات عن شخصية المشتبه فيهم عشان أعرف مين فيهم عنده الاستعداد الأكبر لارتكاب أفعال إجرامية، المعلومات دي أنا ممكن أوصل لها بطريق غير مباشر.

- ازاي يعني؟

قالتها ياسمين بتساؤل.

- أنا ممكن أعمل استبيان يشارك فيه كل زمايل المشتبه فيهم في البنك، استبيان تقليدي زي اللي بنعمله في رسايل الماجستير والدكتوراة، الاستبيان دة هيبقى مذكور فيه جميع أسماء الموظفين بما فيهم طبعا المشتبه فيهم، وكل موظف يقول إيه هي أسوأ صفة بيشوفها في كل زميل من زمايله بالإضافة لأسوأ صفة موجودة فيه هوه شخصًيا، ودة طبعا من غير ما الموظف دة يكتب اسمه عشان نحافظ على شرط الشفافية، ولو اجتمعت أغلب الآراء على صفة معينة في نفس الشخص، فدة معناه إن الصفة دي موجودة فيه فعلا، اللفة دي كلها عشان أشوف مين أكتر واحد من المشتبه فيهم عنده صفة أو أكتر من صفات الشخصية السيكوباتية، وبمقارنة نتايج الاستبيان دة مع شهادة الشهود بعد استجوابهم مرة تانية ممكن أوصل لحاجة.

ظهرت علامات الاستحسان على وجه ياسمين وكذلك على ملامح أحمد الذي أضاف:

- اقتراح ممتاز فعلا، بالشكل دة ممكن حضرتك تعرفهم كويس وبأقل مجهود.

سكت الدكتور عمرو للحظة ثم رفع وجهه مبتسما ابتسامة هادئة، وأخذ ينقل بصره بين ياسمين وأحمد اللذين شعرا بأنه يرغب في الحديث عن أمر ما ولكنه يشعر بقليل من التردد.

- طيب، فيه نقطة أنا ما قلتهاش لسه، العميد مُحسن رئيس المباحث سمحلي بتكوين فريق عمل بشرط المحافظة على السرية، وأنا بصراحة اختارتكم، أنا ثقتي فيكم من الناحية الشخصية والعلمية مالهاش حدود، لكن الموضوع مفيش فيه أي إجبار طبعا، تقدروا تعتذروا واعتذاركم هيكون مقبول.

لمعت عينا ياسمين بسعادة ممتزجة بقدر وافر من الشغف، بينما أطرق أحمد برأسه بشيء من التجهم، رفعت ياسمين يديها الاثنتين بحماسة وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة..

- أنا موافقة طبعا.

ظهرت نظرة امتنان في عين الدكتور عمرو، ثم التفت إلى أحمد الذي لم يُبد القدر نفسه من الحماسة:

- وأنت يا أبو حميد؟

لم يرد أحمد، ولم يخرج عن صمته وعبوسه، تبدو تجربة جديدة بالنسبة له، قد يحتاج قبولها أو رفضها قدرًا من التفكير، هو مجرد شخص عادي يحاول أن يرتدي عباءة العلم، ولم يكن يتخيل أنه سيحقق في جريمة حقيقية يوما ما،

يراوده شعور بالرهبة من المجهول والخوف من الفشل، فيرفع رأسه ويكاد يهم بالاعتذار لولا أن التقت عيناه بعيني ياسمين المثبتة عليه بتحفز، هل سيقبل حقا أن يبدو جبانًا أمامها إلى هذا الحد؟

- هنبدأ امتى يا دكتور؟

لم يشعر بنفسه عندما قالها فجأة بشجاعة مفتعلة نوعا ما، نظرة الارتياح في عيني ياسمين تعطيه شعورًا أنه قد اتخذ القرار الصحيح.

اتسعت ابتسامة الدكتور عمرو وربَت على ذراع أحمد بودٍّ:

- قريب جدًّا إن شاء الله، أنا هاتصل بالعميد محسن وأبلغه بالخطوات اللي اتفقنا عليها، وبالنسبة لتوزيع العمل، أنا هاعيد استجواب الشهود مرة تانية، وأنت يا أحمد هتاخد أقوال عمال الاستراحة بنفسك وتحاول تحللها، وياسمين هتكون مسئولة عن الاستبيان، وهنبلغ بعض بالنتايج اللي تخلص أول بأول.

ظهر الاستعداد على الوجوه، فأردف الدكتور عمرو بأمل:

- توكلنا على الله، أنا متأكد إنكم هتشرفوني.

بنظرة خاوية خالية من أي تعبير، أخذ الدكتور عمرو يجول ببصره في أرجاء تلك الغرفة الضيقة كئيبة المنظر، والتي سيتم بداخلها إعادة استجواب الشهود، حجرة كافية جدا لبعث الشعور بالرهبة وعدم الارتياح لدى أي شخص، بضيقها الشديد وطلائها الرمادي المقيت وأثاثها المتهالك نوعا ما، من المؤكد أن الشهود لم يكونوا سعداء تماما بإدلاء شهادتهم في تلك الأجواء، خاصة مع وجود ذلك الظابط الذي استقبله والمدعو بالنقيب طارق بنظراته المخيفة الصارمة ولهجته العدائية غير المبررة، لحسن الحظ أنه لن يحضر الاستجواب هذه المرة بسبب تكليفه بمأمورية ما.

أخرج مفكرته الصغيرة المعهودة من جيب بنطاله، ثم استنشق نفسًا عميقًا وأشار لأمين الشرطة الواقف أمام الباب بالسماح لأول شاهد بالدخول.

بخطوات مترددة بطيئة، دلف الشاهد الأول إلى حجرة الاستجواب، رجل أشيب الشعر تملأ التجاعيد وجهه، يبدو من مظهره العام أنه رقيق الحال، ويغطي عينه اليسرى بضمادات طبية.

- أهلا وسهلا يا حاج.. اتفضل.

قالها الدكتور عمرو ومد يده مصافحا، فابتسم الرجل ابتسامة بسيطة وصافحه بيد هزيلة.

- أهلا بيك يا أستاذ.

قالها ثم جلس بتروٍّ على المقعد المقابل للدكتور عمرو، أخذ الأخير يتأمله لثوانٍ وبداخله إحساس بأن المهمة لن تكون سهلة كما تبدو.

- ممكن أعرف بيانات حضرتك؟ الاسم والسن والوظيفة؟

- محمد عبده الإتربي، 68 سنة، بشتغل في البوفيه بتاع الهيئة.

أومأ الدكتور عمرو برأسه متفهمًا، الرجل مجرد عامل بالأجر وليس موظفًا، وهذا هو سبب عدم إحالته للتقاعد حتى الآن.

كاد أن يلقي عليه سؤالًا آخر، ولكنه لاحظ أن الرجل يعاني من ألم في عينه السليمة يجعله يغمضها لثوانٍ ثم يُعيد فتحها كل فترة..

- خير يا حاج محمد؟ سلامة عينيك.

- الحمد لله على كل حال، العين التانية كانت راحت خالص من المية البيضا وعملت فيها عملية، بس من يوم ما عملتها والعين دي مغششة وبتوجعني، شكلها كدة هتحتاج عملية برضو.

- أنت عملت العملية امتى؟

- لسة أول امبارح، كلّفت 3000 جنيه والله يا أستاذ.

- معلش يا حاج صحتك أهم، أنت عندك أي أمراض تانية؟

- آه عندي الضغط والسكر، السكر هوه اللي كان مأخرني ومخليني ما اعملش العملية، لأن الدكاترة قالوا مينفعش أعملها والسكر عالي، بس ربك ستر واتظبط.

- طيب يا حاج، أنا مش عايز أطول عليك، أنت طبعا كنت موجود يوم الحادثة، وقلت إنك شفت اللي دخل صالة الحمام بعد القتيلة علطول، ولما اتعرضت عليك الصور اتعرفت على الموظف اللي اسمه محمد ناجح، تمام كدة؟

- أيوة صح، لما وروني صورته أنا عرفته علطول، وما نسيتوش مع إن أنا آخر واحد سألوه.

- وإيه اللي خلاك متأكد للدرجادي؟ أنا راجعت الأسئلة اللي النقيب طارق سألهالك قبل ما يعرض صور المشتبه فيهم عليك، ولقيت إنك ما كنتش فاكر المتهم كان لابس إيه بالظبط.

- أيوة يا بيه أنا ما كنتش فاكر فعلا، بس ربك بقى بيسبب الأسباب، الحاجة اللي خدت بالي منها وخليتني متأكد إنه هوه هي تسريحة شعره، كان حالق حلقة من بتاعت اليومين دول كدة مش فاكر اسمها إيه، مطول شعر من ناحية ومقصره م الناحية التانية.

- يعني أنت ما أخدتش بالك من ملامح وشه؟؟

سكت الرجل للحظة بدا عليه فيها مزيج من التوتر والقلق، ثم حسم أمره وقال بلهجة قاطعة:

- بص يا بيه أنا قلت اللي أنا فاكره، أنا راجل كبير ونظري على قدّي زي ما أنت شايف، والموضوع كله حصل في ثانية، واللقطة دي هي اللي لازقة في دماغي وفاكرها كويس، وأنا لو أعرف إن كل ده هيحصل كنت دققت، بصراحة أنا مش فاكر غير شعره، لكن الوش لا، بس مادام هو اللي عامل التسريحة دي يبقى مفيش غيره.

- معلش أنا مش فاهم النقطة دي، إزاي فاكر شكل شعره بس؟

تنهد الرجل بصبر ثم تابع:

- يا بيه أنا راجل في أواخر عمري، ما استحملش إني أشيل ذنب شهادة زور ومش هاقول غير اللي أنا متأكد منه، أنا مش شغلتي إني أراقب اللي داخل واللي خارج من الحمام، أنا كنت بتكلم مع زمايلي وبعدين شفت البنت وهي داخلة، بعدها دورت وشي وكملت كلام، ولما عيني جت على صالة الحمام تاني لمحته وهو داخل بسرعة وشعره هو الحاجة اللي متأكد منها.

أخذ الدكتور عمرو يتفحصه بنظرات كاشفة، فشعر بأنه صادق في حديثه إلى أقصى درجة..

- وما شفتوش لما خرج من الحمام بعد كدة؟

- لا يا ابني والله، لو كنت شفت كنت قلت، ساعتها كان وقت صلاة المغرب وأنا صليت وبعدين مشينا علطول، وما كنتش مركز مع الناس التانية دي.

بدا للدكتور عمرو أنه لم يعد هناك مجال لإلقاء مزيدٍ من الأسئلة، فاستعرض في ذهنه تفاصيل الحوار مرة أخرى، تذكر فجأة شيئا ما فاستدرك سريعا:

- صحيح يا حاج محمد، أنت قلتلي إنك آخر واحد استجوبوه، إيه السبب؟

- أصلي ماكنتش قاعد في بيتي، أنا سافرت تاني يوم الحادثة لنسايبي في البلد، مراتي يعني كانت عايزة تشوف اخواتها، بس الحكومة عرفت مكاني وجابوني على ملا وشي.

- طيب يا حاج محمد.. تقدر تتفضل.

- شكرا يا ابني ربنا يكرمك.

انصرف الرجل خارجا، وانتهى الدكتور عمرو من تدوين كافة ملاحظاته والنقاط التي يراها هامة لتحديد مدى دقة الشهادة وإمكانية الاعتماد عليها، ثم هز رأسه موافقًا لأمين الشرطة فأشار الأخير للشاهد الثاني بالدخول.

رجل في منتصف الأربعينيات، طويل الذقن والشعر، مظهره غير مهندم على الإطلاق ويظهر على ملامحه الارتباك الشديد.

- أهلا بحضرتك.. اتفضل.

لم يرد الرجل التحيّة، وجلس أمام الدكتور عمرو بشيء من التذمر، شعر الدكتور عمرو بتوتره المبالغ فيه فحاول أن يلطِّف الأجواء قليلًا..

- معلش احنا آسفين إننا استدعيناك مرة تانية.

نظر الرجل إليه بحدة.. ثم نطق للمرة الأولى:

- أنا الحقيقة مش عارف أنا هنا ليه؟ أنا قلت كل اللي أعرفه في أول مرة.

بصوت مرتعش قليلا ونظرات زائغة، وانفعال عارم لا يتماشى أبدا مع بساطة الموقف، رد الرجل هذا الرد العدائي الذي بعث قليلا من الشك في نفس الدكتور عمرو.

- بيانات حضرتك؟

- إسماعيل عبد الهادي، 47 سنة، محاسب بهيئة الآثار.

يدقق الدكتور عمرو النظر إليه، احمرار وجهه الشديد وتسارع أنفاسه، كلها أمور تدفعه إلى السؤال بعفوية:

- حضرتك بتعاني من أي أمراض مزمنة، ضغط مثلا أو سكر؟

- لا.

- طيب بعد إذنك ثانية واحدة.

نهض الدكتور عمرو فجأة وأسرع يغادر الغرفة تاركًا الرجل يتابعه ببصره باستغراب، ثم أخرج هاتفه المحمول من جيبه واتصل برقمٍ ما، رنّة واحدة ثم أتى الجواب:

- السلام عليكم، أهلا يا دكتور.

- سيادة العميد، أنا آسف إني بتصل بحضرتك في مواعيد العمل، بس أنا كنت محتاج شوية حاجات كدة، يا ريت حضرتك تبعتهالي بسرعة على أوضة التحقيق.

- خير؟

- كنت محتاج جهاز قياس ضغط ضروري جدا، واآآآ..

سكت للحظة قبل أن يلقي قنبلته..

- وكنت عايز لبانة بعد إذنك.

- نعم؟ أنت بتهزر يا دكتور؟

- إطلاقا يا فندم، بعد إذن حضرتك ما تتأخرش عليا، وأكيد أنا هاشرح لك كل حاجة بعدين.

مرت لحظات من الصمت كتم خلالها الدكتور عمرو ابتسامته وهو يتخيل شكل ملامح العميد محسن الغاضبة وإحساسه بالندم لكونه قد استعان بمخبول.

- حاضر.

قالها العميد محسن بشيء من الضيق ثم أغلق الخط. لم تمر أكثر من خمس دقائق، حتى حضر أحد الأمناء حاملًا بيده جهاز قياس الضغط وقطعة العلكة المنشودة، ناولهم للدكتور عمرو ثم ابتسم في وجهه ابتسامة ساخرة بلهاء.

عاد الدكتور عمرو إلى الحجرة مرة أخرى حاملا معدَّاته، ثم جلس أمام الشاهد وابتسم في وجهه ابتسامة مصطنعة:

- ها يا سيدي، احكي لنا بقى إيه اللي حصل.

عاد التوتر إلى وجه الشاهد مرة أخرى، ثم بدأ الحديث:

- آآآ مفيش.. أنا كنت قاعد بشرب شاي مع زمايلي، وبعدين شفت البنت وهي رايحة الحمام و..

- استنى استنى..

أوقفه الدكتور عمرو عن الكلام بغتة. رمقه الرجل بنظرة تساؤل ممتزج بالحنق، فرفع الدكتور عمرو حاجبيه ثم قطبهما بشدة، أداء تمثيلي حاول قدر الإمكان أن يبدو مقنعا، ثم أردف:

- إيه دة؟ أنت شكلك تعبان جدا وشك أحمر ومحتقن، حاسس بإيه؟

تسرب الخوف إلى نفس الرجل وبدأ يتحسس وجهه بهلع، فتابع الدكتور عمرو:

- أنت لازم تقيس الضغط.

لم ينتظر الدكتور عمرو ردَّ الرجل، بل كشف ذراعه بسرعة وبدأ يقوم بعمله، حتى انتهى منه بعد دقيقة واحدة فعاد إلى مقعده بهدوء، نظر الشاهد إليه بلهفة ثم سأله:

- إيه الأخبار؟

قالها الرجل بانزعاج.

- لا مفيش حاجة إن شاء الله، الأمور كلها تمام.

رد الدكتور عمرو باهتمام ثم تابع:

- امضغ اللبانة دي، اللبان هسياعدك على الاسترخاء وتأثيره ممتاز في تخفيف الضغط والتوتر، ثانية واحدة هاقيس نبضك.

مد يده ليضعها على معصم الرجل لثوانٍ قليلة، ثم سحبها وابتسم مرة أخرى في وجه الرجل الذي بدا عليه الارتياب.

- نرجع لموضوعنا بقى، إيه اللي حصل يوم الحادثة؟

أجاب الرجل وهو يمضغ العلكة بعصبية:

- أنا كنت بشرب شاي مع زمايلي في الاستراحة، زي كل يوم في الميعاد دة، شفت البنت داخلة الحمام ودخل وراها بسرعة زميلها اللي اسمه إبراهيم، أنا متأكد من أقوالي بنسبة 100٪.

- مش غريبة إنك عارف اسم زميلها؟

بدا أن الرجل قد تفاجأ بالسؤال تماما ولم يكن يتوقعه، فرد بشيء من الارتباك:

- آآآ ما أنا عرفت اسمه لما وروني صورته، لما استجوبونا بعد كدة يعني.

- مممم وبعدين، كمل.

- بعدها بحوالي خمس دقايق شفت إبراهيم وهو خارج من صالة الحمام، كان باين إنه فيه حاجة مش طبيعية، وكان عمال يتلفت وراه كأنه عامل عملة.

- وأنت ساعتها ما شكَّيتش فـ حاجة؟

- لا، شكِّيت، بس مكنتش أتخيل طبعا إن ممكن تحصل حاجة زي دي، وبعدين زمايلي كانوا قايمين علشان يمشوا فقمت معاهم.

- طيب، تقدر تقول لي إبراهيم كان لابس إيه في اليوم دة؟

- أيوة طبعا، كان لابس قميص نبيتي وكرافتة سودا وبنطلون إسود.

هز الدكتور عمرو رأسه متابعًا، وكتب بعض الملاحظات في مدونته ثم أطرق برأسه مفكرًّا لبرهة، رفع بعدها وجهه نحو الرجل وبعينيه نظرة غامضة لم يفهمها الأخير.

- شكرًا على مساعدتك يا أستاذ إسماعيل.

وأشار بيده للرجل ليسمح له بالخروج، بدا الارتياح على وجه الشاهد ونهض من مكانه، فاستدرك الدكتور عمرو سريعًا:

- أستاذ إسماعيل!

التفت الرجل إليه بحيرة، فمدَّ الدكتور عمرو يده إليه حاملا بها منفضة السجائر ثم تابع:

- تقدر تتف اللبانة دلوقتي، متهيألي ضغطك بقى طبيعي.

ثبَّت الرجل بصره عليه للحظات غير فاهمٍ مقصده، ثم هزَّ كتفيه بعدم اكتراث وأخرج العلكة من فمه ووضعها بالمنفضة وهرول خارجا.

قرَّب الدكتور عمرو المنفضة إلى وجهه، أمعن النظر بالعلكة الممضوغة، ثم اتسعت ابتسامته.

دخل الشاهد الثالث إلى حجرة الاستجواب، بابتسامة عريضة واثقة تعلو وجهه، وبدون أن يبدو على ملامحه أي قدر من القلق أو الانفعال، ثم مدَّ يده مصافحا الدكتور عمرو بترحاب.

- أهلا يا فندم.

صافحه الدكتور عمرو وهو ينظر إليه باستغراب.

جلس الرجل بطريقة يظهر فيها الارتياح الكامل وعدم الإحساس بأي ضغط، تفحصه الدكتور عمرو للحظة، يبدو شديد الثقة من نفسه ومن شهادته.

- بيانات حضرتك؟
- سامح سالم، موظف إداري بهيئة الآثار، 40 سنة.
- أستاذ سامح حضرتك شهدت على الموظف اللي اسمه أحمد الدالي، مظبوط؟
- أيوة يا فندم صح.
- حضرتك متأكد من شهادتك؟
- بنسبة 100٪ يا فندم، بدون أدنى نسبة شك.

اتسعت عينا الدكتور عمرو باهتمام، أول شاهد تدل تعبيرات وجهه ولغة جسده على الصدق والثبات.

- يعني أنت لمحته بيدخل صالة الحمام بعد القتيلة علطول؟

- أيوة بالظبط، لحسن الحظ إني كنت باصص ناحية الولد اللي بيعمل الطلبات لأني كنت محتاج معلقة سكر زيادة على الشاي، فشفت البنت وهي رايحة ناحية الحمام، بعدها بثواني شفت أحمد دة بيدخل صالة الحمام وراها علطول.

سكت الدكتور عمرو قرابة النصف دقيقة، قبل أن ينظر في عيني الشاهد مباشرة ويردف:

- أستاذ سامح، أنا هاعيد السؤال على حضرتك تاني، وخللي بالك إن شهادتك دي لو مش دقيقة ممكن تلف حبل المشنقة على رقبة إنسان بريئ، حضرتك متأكد من شهادتك؟؟

علت وجه الشاهد ابتسامة هادئة ثم قال:

- يا فندم مفيش حاجة تجبرني أقول إني واثق في أقوالي لو أنا مش كدة فعلا، أنا لو ما شفتش هاقول ما شفتش بكل بساطة، ولو عندي ذرة شك واحدة كنت هاسهل الأمور على نفسي وأقول إني مش فاكر الواقعة أصلا، أنا مجرد شاهد وفي كل الأحوال محدش هيتهمني بحاجة، لكن أنا براعي ضميري قدام ربنا أولا وأخيرا، وربنا بيقول في القرآن (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثمٌ قلبه) صح ولا إيه؟

- صدق الله العظيم..

تمتم الدكتور عمرو مؤيدًا.

يبدو أن اللغز في طريقه للحل، هكذا حدَّث الدكتور عمرو نفسه بعد هذه الإجابة المقنعة من الشاهد وهذا القدر الكافي جدًّا من اليقين.

- طيب يا أستاذ سامح، بما إنك متأكد من أقوالك بالشكل دة يبقى أنت أكيد فاكر المتهم كان لابس إيه؟

- أيوة طبعا فاكر، كان لابس قميص بيج وبنطلون بني وكرافتة بني، وعلشان حضرتك تتطمن أكتر هاقولك البنت نفسها كانت لابسة إيه، كانت لابسة بلوزة رمادي وجيبة سودا، أنا فاكر الطقم دة كويس لأن مراتي كان عندها واحد زيه.

ابتسم الدكتور عمرو بشيء من المكر قبل أن يقول:

- مش ملاحظ إنك مركز معاهم زيادة عن اللزوم؟

لم يبتسم الرجل، بل قطب حاجبيه بجدية، ثم ردَّ بلهجة عدائية:

- مش فاهم حضرتك تقصد إيه بالظبط؟

- أقصد إن الجريمة حصلت من أكتر من أسبوعين، معقولة أنت لسة فاكر كل التفاصيل الصغيرة دي؟

نظر الشاهد إلى الدكتور عمرو بشيء من السخرية، ثم أردف بتهكم:

- هو حضرتك ناسي إن المباحث استجوبت كل الشهود قبل كدة؟ احنا تم استجوابنا بعد الحادثة بحوالي 3 أيام، وقتها طبعا أنا كنت فاكر كل حاجة، وأكيد بعد ما عرفت بأهمية شهادتي وخطورة الموضوع ما نسيتش أي كلمة من اللي قلتها في الشهادة الأولانية.

رمقه الدكتور عمرو للحظات بنظرة متفحصة، ثم تراجع في مقعده قبل أن يقول:

- أنا بشكرك على شهادتك يا أستاذ سامح، وعلى صراحتك ونزاهتك كمان.
- العفو يا فندم دة واجبي.
- مع السلامة.

شعر الدكتور عمرو بكثير من التعجب تجاه ذلك الشاهد الرابع بسبب تصرفاته الغريبة، فقد ظل واقفا أمام الباب لفترة طويلة مترهبا من الدخول، وحتى عندما بدأ الدخول إلى الغرفة، كانت خطواته بطيئة متثاقلة وكأن قدميه لا تقويان على حمله، ونظراته تبدو شاخصة متجهمة متحفظة إلى حد كبير، خطر للدكتور عمرو أن يسأله عن ذلك بصورة مباشرة..

- خير يا أستاذ؟ مالك؟
- أنا؟ مالي؟ رد الرجل بانزعاج وهلع.
- مفيش، بس شكلك خايف من حاجة يعني.
- لا إله إلا الله.. ضرب الرجل كفا بكف ثم أردف:
- أنت عايز تلبسني التهمة ولا إيه يا باشا؟؟

ظهرت علامات الذهول واضحة على وجه الدكتور عمرو، كيف فكر الرجل بهذة الطريقة؟؟

- تهمة إيه بس يا أستاذ، أنا بسألك مالك؟

احتد الرجل فجأة واحمرت عيناه، ثم قال بصوت يرتعش انفعالًا:

- لا، أنت قلت لي أنت خايف من إيه، قصدك إيه يعني؟ إن أنا المجرم مش كدة؟؟

لم يستطع الدكتور عمرو أن يمنع تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجهه والتي تحولت بعد ذلك لضحكة قصيرة.

- المجرم مرة واحدة؟ أنا ما قصدتش أي حاجة من الكلام دة.

رمقه الرجل بنظرة يملؤها الشك، فتابع الدكتور عمرو حديثه..

- إيه اللي خلاك تقول الكلام دة، ومين اللي فهمك إنك متهم أصلا؟

هدأ الرجل قليلا، ثم بدأ بالحديث بنبرة مهتزة:

- بصراحة، والدتي هي اللي قالتلي كدة، أنا بثق في كلامها يعني، قالت لي أنكم مادام طلبتوني تاني تبقوا عايزين أي حد تلبسوه التهمة وخلاص.

- وأنت ازاي تصدق حاجة زي دي، المفروض إنك إنسان متعلم يعني.

هز الرجل كتفيه ثم تابع الحديث متحاشيًا النظر إلى الدكتور عمرو:

- أنا ما كنتش خايف من حاجة وكنت عارف إنها شهادة وخلاص، بس لما الحجة عرفت إني هاشهد تاني قالت الكلام دة، وأنا من ساعتها وأنا مش قادر أتلم على نفسي.

- حضرتك عندك كام سنة؟

- 43 سنة.

- ممكن أعرف اسمك؟

- طاهر عبد العليم.

- طيب يا أستاذ طاهر، ممكن تحكي لنا شفت إيه بالظبط يوم الحادثة؟؟

- أنا شفت البنت اللي اتقتلت وهي داخلة الحمام، وبعد ما دخلت دخل وراها علطول واحد من زمايلها، أنا اتعرفت عليه لما شهدت قبل كدة.

- آه، هاني الشربيني، كمّل.

- أكمّل إيه يا أستاذ، خلاص كدة.

- أيوة يعني إيه اللي خلاك فاكر اللي حصل دة كويس، مش ممكن تكون غلطان؟

عادت نظرة الخوف إلى عين الرجل.. ثم أردف:

- أنت عايزني أقول إيه يا باشا؟

- عايزك تقول الحقيقة طبعا.

- ما أنا قلت الحقيقة والله.

لم يشعر الدكتور عمرو بالارتياح تجاه هذه الشهادة، تلك النبرة المذعورة تخفي وراءها شيئا ما.

- ماشي يا طاهر، طيب فاكر الهدوم اللي الجاني كان لابسها؟

بدا هذا السؤال على الرغم من بساطته مفاجئًا جدا لطاهر الذي ظهر مرتبكًا جدًّا وكأنه وقع في مأزق.

- مش فاكر

رد الشاهد باقتضاب وأشاح ببصره.

شعر الدكتور عمرو في هذه اللحظة أن قليلا من الحزم سيفي بالغرض ويكشف كل الأمور المخفية، فتابع:

- اسمع يا طاهر، احنا مش بنهزر هنا، وأنت أكيد مش متهم لكن لو شهادتك غلط ممكن يبقى فيه مسئولية عليك.

انهار الشاهد تماما في هذه اللحظة، وتجمعت الدموع في عينيه ثم قال:

- بص يا باشا أنا هاحكي لك كل حاجة، بصراحة أنا كنت شاكك في كذا واحد، ولما كانوا هيسألوني أول مرة كنت هاقوللهم معرفش وخلاص، لكن ربنا أراد تحصل حاجة كدة تخليني أفتكر كل اللي حصل.

هز الدكتور عمرو رأسه للرجل يشجِّعه على الاستمرار في الحديث، فاستطرد الرجل بصوت خفيض وبلهجة بطيئة كدلالة على أن ما يقوله شديد الأهمية:

- أنا سمعت الظابط اللي كان بيحقق معايا وهو بيتكلم في التليفون قبل ما يستجوبني، كان بيتكلم مع واحد كدة شكله زميله أو بيشتغل معاه، سمعته بيقول إنه شاكك في الراجل اللي اسمه هاني دة، وبيقول إنه شافه قبل كدة وحاسس إن وشه مش غريب عليه، وأنا من ساعة ما سمعت الكلام دة وأنا افتكرت علطول إن هاني دة هوه اللي دخل ورا البنت وبقيت متأكد من الموضوع دة.

ظل الدكتور عمرو ينظر إليه للحظات بثبات بعد أن انتهى من حديثه، ثم رفع حاجبيه مفكرا.

- أنا كدة تمام يا باشا؟

- آه.. تمام

رد الدكتور عمرو ثم استدرك سريعا:

- كدة الشهادة خلصت خلاص، بس خليك قاعد معانا شوية يا عم طاهر، أنت مستعجل على إيه.

ظهر القلق مرة أخرى على ملامح الشاهد وتعبيرات وجهه المترددة، بينما أخذ الدكتور عمرو يفكر في أي حوار يفتحه مع الرجل لكي يتأكد من تلك الخواطر التي جالت برأسه، وقع بصره فجأة على قدمي الشاهد اللتين ترتجفان بردًا فنظر إليه بشيء من الشفقة.

- أنت مش لابس تقيل ليه؟

- ما أنا متقل من فوق أهو والله ولابس بلوفرين.

- المفروض تلبس بنطلون تقيل برضو، جينز مثلا.

هز طاهر يديه بعنف ثم أردف:

- لا لا يا باشا، جينز إيه بس، أنا واحد صاحبي قال لي إنه بيجيب عقم، وأنا من ساعتها ما بقربلوش.

سكت الدكتور عمرو ولم يردّ، وظل صامتا لفترة ثم نظر فجأة للرجل وقال بتلقائية وكأنه يحادث صديقا:

- والله يا طاهر الواحد محتار في القضية دي، بس أعمل إيه، جايلي تكليف بيها من رئيس الجمهورية نفسه.

اتسعت عينا طاهر للحظة ثم قال:

- ياه، الريس مرة واحدة، وأنت تعرفه من قريب يا باشا؟؟

- آه طبعا، اتقابلنا كذا مرة قبل كدة، وأنا بصراحة ما أقدرش أرد له طلب.

أومأ طاهر برأسه بشدة متفهمًا وظهرت على وجهه علامات التعاطف..

- الله يعينك يا باشا والله، دي مسئولية كبيرة أوي.

- ماشي يا طاهر، أنا عايزك تخليك قاعد بس خمس دقايق، لأن الجو هنا دفا جدًّا وبرّا برد، لو خرجت علطول هيجيلك إنفلونزا.

- ماشي يا باشا تسلم.

الدقائق تمر واحدة تلو الأخرى، وتتلاشى تماما تلك الرجفة التي كانت تعصف بقدمي الشاهد، ثم يقف ليلقي التحية على الدكتور عمرو بصوت خفيض ويغادر المكان.

يبدأ الدكتور عمرو في كتابة ملاحظاته التي تبدو كثيرة هذه المرة، لدرجة أن المفكرة الصغيرة قد امتلأت كل صفحاتها تقريبًا، ثم ينتهي من الكتابة ويستدعي الشاهد الأخير.

لم يشعر الدكتور عمرو بالارتياح إطلاقا لمرأى ذلك الشاهد، ولا لرؤية حاجبه الأيسر المرفوع دوما مع تلك الابتسامة الساخرة التي لا تفارق شفتيه، وتلك النظرة المعهودة المقيتة، نظرة الشخص (الفهلوي) الذي يعتقد أنه يعرف بواطن الأمور ويثق بذلك تماما.

مع ما يشعر به من الإرهاق بعد الاستجوابات الأربعة السابقة، لم يكن الدكتور عمرو ليحتمل مزيدًا من الاستظراف أو التعليقات السخيفة، فرسم على وجهه قدر من الصرامة والحزم منذ البداية..

- اسم حضرتك وسنك ووظيفتك؟
- مصطفى مؤمن، 37 سنة، بشتغل حارس أمن في الهيئة العامة للآثار.
- تمام، تقدر تعيد شهادتك تاني بعد إذنك؟؟

هز الرجل رأسه هزة خفيفة ثم أردف:

- بس كدة يا بيه، أنت تؤمر.

قالها كأنه يسدي صنيعا للدكتور عمرو بشهادته، فرمقه الأخير باستخفاف..

- بص يا بيه، أنا لمحت البنت لما قامت تروح الحمام، وبعد شوية لقيت الموظف اللي شهدت عليه دة قايم يدخل وراها وزي ما يكون بيجري..
- ثانية واحدة!

قاطعه الدكتور عمرو فنظر الرجل إليه بتساؤل:

- يعني إيه بعد شوية؟؟ أنت فضلت باصص بعد ما البنت دخلت الحمام ولا دورت وشك؟

- لا يا بيه، وأنا إيه اللي هيخليني أفضل باصص؟ أنا شفتها بتدخل وبعدين التفتت الناحية التانية بقى، وأول واحد شفته بيدخل بعد كدة هوه الراجل اللى اسمه مجدي دة.

- بس ممكن يكون فيه حد دخل وراها علطول وأنت ما شفتوش؟

ارتسمت الابتسامة الساخرة إياها على وجه الرجل، ثم مال برأسه ناحية الدكتور عمرو ونظر في عينيه مباشرة ثم قال بلهجة واثقة:

- متتعبش نفسك يا بيه، اللي أنا بقولهولك هو الصح، متدورش كتير بقى.

رمقه الدكتور عمرو بنظرة خالية من أي معنى، ثم قرر أن يجاريه في الحديث لكي يجعله يفصح أكثر عن مصدر معلوماته، فرسم في عينيه نظرة اهتمام لكي يشجعه على مزيد من الاستطراد.

- يا مصطفى، أنا متأكد طبعا إنك بتقول الحقيقة، بس مينفعش الكلام يتقال كدة بدون دليل.

بدا على الرجل قليل من الضيق وازدادت لهجته تصميما:

- يا باشا اسمع اللي بقولك عليه، الراجل دة بالذات أنا متابعه من زمان لأنه مفضوح، وواخد بالي كويس من نظراته للبنت الله يرحمها، كانت نظرته وحشة أوي، حتى وهو قاعد وسط الناس مكانش بيعرف يتحكم في نفسه،

كان يفضل يبص على جسمها بوساخة وبجاحة ويحرق في سجاير، نظرة الرجالة تعرفها كويس أوي وتقدر تفهمها بسرعة، مش عايز أقولك إني شفته بيحاول يلمس جسمها كذا مرة من غير ما تاخد بالها، أنا والله فكرت أتخانق معاه بس قلت بلاش عشان ما اعملش شوشرة على البنت الغلبانة، وكمان هو زميلها في الشغل يعني الموضوع حساس شوية، بس كان باين هو ناوي على إيه.

ظهرت علامات الدهشة وعدم الفهم على وجه الدكتور عمرو الذي قال:

- يا ابني إيه علاقة اللي أنت بتقوله دة بالجريمة اللي حصلت؟
- إيه علاقته ازاي يا باشا؟

قالها الرجل بصوت مرتفع، ثم تابع وهو يضرب بيده على جانب رأسه:

- مش نشغل الجمجمة شوية؟

شعر الدكتور عمرو بقليل من الإهانة، ثم تمالك نفسه بصعوبة وقال بشيء من نفاد الصبر:

- وضح أكتر لو سمحت.
- يا باشا مع احترامي ليك يعني، لو أنا اللي بحقق في القضية وعرفت معلومة زي دي تبقى خلاص كدة القضية اتحلت، واحد معندوش لا أخلاق ولا دين والشهوة بتتحكم فيه، وبنت اتعرضت لاغتصاب وقتل في الحمام، يبقى إيه بقى؟ مفيش أي ربط يعني؟

بلغ ذهول الدكتور عمرو ذروته وشعر بمزيد من الارتباك والحيرة دفعاه للتساؤل:

- مين اللي قالك إن البنت اتعرضت للاغتصاب؟ دي جريمة قتل يا مصطفى.

ارتسمت الابتسامة الساخرة المعهودة على وجه الرجل مرة أخرى، ممتزجة بنظرة تهكم هذه المرة:

- يا باشا أنت مش بتكلم واحد هندي، بنت اتقتلت في الحمام في عز النهار، لو اللي قتلها قاصد يقتلها بس كان عمل كدة بعيد عن الناس أو في ظروف تانية عشان محدش يشك فيه، لكن لما يعمل كدة في التوقيت دة فدة مالوش غير معنى واحد، إنه اعتدّى عليها وخاف إنها تفضحه، أنتم بقى مش عايزين تعلنوا الموضوع عشان سمعة البنت وشعور أهلها وكدة، دي حاجة تخصكم أنتم ومعاكم حق فيها، بس أنا مبحبش حد يقلل من قدراتي لا مؤاخذة.

ظهرت الابتسامة الساخرة على وجه الدكتور عمرو هذه المرة، وأخذ يتأمل نظرة التحدي التي ظهرت في عين الرجل للحظات ثم تمتم بهدوء:

- أنت أفدتنا جدًّا الحقيقة يا مصطفى، شكرًا على الشهادة العظيمة دي، اتفضل.

انتشى الرجل فخرا بدون أن يشعر بلهجة الاستهزاء التي تحدث بها الدكتور عمرو ثم غادر المكان بخطوات واثقة، تابعه الدكتور عمرو ببصره حتى انصرف، ثم استنشق نفسًا عميقًا.

انتهى الاستجواب أخيرًا، بكل ما حمله من تناقضات في الأقوال والشخصيات وبكل ما استلزم من ثبات انفعالي وصفاء ذهن، يجاهد لكي يتذكر كل التفاصيل الصغيرة وكل الشهادات بحذافيرها، ثم يراجع مدونته الصغيرة ليضيف عليها مزيدًا من الملحوظات، يأتيه اتصال مفاجئ من العميد محسن الذي يبدو وكأنه لا يطيق صبرًا لمعرفة نتيجة التحقيق..

- ازي حضرتك يا فندم؟

- أهلا يا دكتور، أنا بتطمن عليك بس، إيه الأخبار؟

- أكيد يا فندم فيه جديد، لكن طبعا مش هاقدر أقول لحضرتك النتيجة النهائية دلوقتي، لكن فيه شهادات نقدر نعتبرها مش موجودة أصلا ومستحيل نستند إليها فى جريمة زي دي، وفيه أقوال تانية منطقية أكتر، لكن محتاجة شوية بحث عشان نتأكد من صحتها.

بدا أن الكلام لم ينل استحسان العميد محسن الذي صمت لفترة لم يعرف خلالها كيف يرد، من الواضح أنه كان ينتظر سماع الإجابة الشافية فورا.

- ممم.. طيب يا دكتور، معاك وقت لحد بكرة الصبح إن شاء الله، أعتقد وقت كافي جدا عشان تقدر توصل لحاجة.

- تمام.

رد الدكتور عمرو باقتضاب ممتزج بالقلق.

- هاستنى اتصالك، مع السلامة.

كاد الدكتور عمرو أن يرد عليه التحية، ثم تذكر فجأة أمرًا ما فاستدرك:

- يا فندم لحظة بعد إذنك.

- خير؟؟

- يا ريت لو عند حضرتك تسجيلات الكاميرات اللي على بوابة الاستراحة، كنت محتاجها بعد إذنك، ويا ريت لو ممكن تسجيلات الأسبوع كله مش اليوم اللي حصلت فيه الجريمة بس.

- سهلة، احنا أخدنا كل التسجيلات دي على اسطوانة وعملنا منها كذا نسخة، ساعة بالظبط ويكون عندك واحدة منهم، فيه طلبات تانية؟

- لا يا فندم شكرا جزيلا.

- مع السلامة.

أغلق الدكتور عمرو هاتفه، سيكون عليه الانتظار لساعة إضافية لحين وصول التسجيلات، خطر بباله أن يتصل بأحمد ليعرف ما توصلت إليه الأمور مع عمال الاستراحة، ولكي يحاول استهلاك الوقت المتبقي بدلا من الانتظار وحيدًا، ولسبب آخر يشغل تفكيره..

استقل أحمد سيارته بعدما انتهى من استجواب عمال الاستراحة، وبعد أن استوفى كذلك تلك الجزئية التي طلب منه الدكتور عمرو هاتفيًّا أن يقوم بالتحقيق فيها، حالة من الحيرة تصيبه بسبب عدم قدرته على الوصول لأي ثغرة في أقوال العمال، فأقوالهم كلها منطقية ولا يوجد بها أي شيء يدعو للارتياب أو الشك، وهي متطابقة كذلك مع شهادتهم التي سبق وأن أدلوا بها من قبل، ولم يظهر في سلوكهم أو ملامحهم أي دلالة على الارتباك أو الخوف أو

التردد، مجرد شهود عاديين لا تحوم حولهم أيّة شبهات ولا يوجد مبرر وحيد لاتهامهم، من الجيد أن الدكتور عمرو لم يُبدِ أي استغراب أو استنكار حين سمع تلك النتيجة، من الواضح أنه لم يضعه في دائرة اهتمامه من الأساس ولم يتوقع أن تسفر إعادة استجوابهم عن أيّة مفاجآت.

راوده شعور بالارتياح لكون مهمته قد انتهت مؤقتا بانتظار ما سوف تسفر عنه باقي التحقيقات، فاسترخى قليلا في مقعد القيادة، واتجه تفكيره لا شعوريًّا نحو تلك الجميلة التي تبدو أقرب إليه الآن من أي وقت مضى، أصبحت تجمعهما لقاءات مشتركة ومهمة واحدة، والمبررات تبدو حاضرة لكي يتبادل الحديث في أي وقت إذا أراد ذلك، ذلك الحاجز الثلجي الهش الفاصل بينهما يذوب رويدًا رويدًا، تُرى هل يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن يبوح لها بمشاعره؟ هل ستواتيه الجرأة حقا للاعتراف لها بحبه؟ ولمَ لا؟ ما الذي ينقصه؟ حدث نفسه بذلك: وبم يفيد الكتمان؟ يكفي ما ضاع من العمر في التخيلات الهائمة والمراقبة التي لن تجديَ نفعا، عليه الآن أن يستغل الفرصة التي ربما لن تتكرر، شعر فجأة بقدر مفاجئ من الاندفاع والتصميم، وعقد العزم على أن يمهد لها الأمور في اللقاء القادم، من المهم حقا أن يحدث نوع من أنواع (جسّ النبض) لكيلا يصاب بخيبة أمل صادمة فيما بعد.

أيقظه رنين هاتفه من خواطره المليئة بالحماسة، رقم غير مسجل يتصل به فيفتح الخط ويضغط على زر تكبير الصوت..

- أيوة؟
- ازيك يا أحمد.. أنا ياسمين

تتبخر تماما تلك الحماسة التي كانت تملؤه منذ قليل ليحل محلها شعور عارم بالارتباك، تتصلب يديه للحظات على عجلة القيادة، ثم يسارع بوضع الهاتف على أذنه لكي يسمع بوضوح، ولا يلحظ ذلك (المطب) اللعين لسوء الحظ، فيصطدم رأسه بقوة بسقف السيارة ويشعر وكأن النجوم تدور حول رأسه كما يحدث في أفلام الكارتون، وعلى الرغم من كل ذلك يخرج صوته رقيقًا هادئًا، ممتزجا بنبرة من السعادة لأنها قد رفعت الكلفة بينهما أخيرًا.

- أهلا أهلا، ازيك أخبارك إيه؟

من أين حصلت على رقم هاتفه؟ ومن يبالي بتلك الأسئلة السخيفة الآن؟

- الحمد لله، خلصت التحقيق اللي طلبه منك الدكتور عمرو؟
- آآآ آه تمام، نتيجة سلبية، مفيش أي دليل يخليني أشتبه فيهم.
- ممم.. يعني واضح كدة إن الشهود هما اللي ممكن يحلوا القضية دي.
- وأنتِ وصلتِ لحاجة؟
- لا أنا لسة رايحة البنك، في الطريق.

سكتت للحظة وسكت بدوره، هل ستنهي الحديث بهذه السرعة؟ لحسن الحظ لم تفعل.

- بس بصراحة أنا مش متأكدة إني ممكن أوصل لنتيجة، مش حاسة إني ممكن أعتمد على الاستبيان دة بشكل أساسي.

- هي مجرد محاولة بس، يعني أنا شايف إن الاستبيان ممكن يساعدك في استبعاد واحد أو أكتر من المشتبه فيهم، أنا برضو عندي تحفظ على جزئية معينة فيه.

- جزئية إيه؟

تنهد أحمد بصبر وبدأ يستعيد طبيعته الجادة، ثم أردف باهتمام وبنبرة الصوت المرتفعة نفسها قليلا التي يستخدمها في الشرح:

- أنا شايف إن القاتل في الجريمة دي هوه مجرم بالصدفة، شخص عادي معندوش أي سوابق إجرامية ودي تعتبر أول جريمة عملها في حياته، فمش المفروض إننا ندور على صفاته السيكوباتية المنحرفة قد ما المفروض نبحث عن دافع الجريمة، إيه اللي خلى الشخص الطبيعي دة يبقى قاتل؟ وإيه هي الحاجة اللي خلته يتخلى عن مبادئة وآدميته ويتحول لوحش؟ لازم يكون فيه دافع قوي للدرجة اللي تخليه ياخد قرار زي دة.

- بس التحريات أثبتت إن المجني عليها كانت علاقتها كويسة بكل زمايلها؟

ابتسم أحمد بتهكّم ثم قال:

- الناس بتاخد بالظاهر، وعادة العلاقات بين الناس بتبقى متداخلة وفيها تفاصيل كتير مش باينة، وفي الآخر كلنا بنحاول نبان قدام بعض إننا مثاليين وما فيناش غلطة، لكن الحقيقة إن دة مجرد قناع بنلسه فوق وشنا الحقيقي.

سكتت ياسمين للحظة، بدت خلالها أنها تحاول استيعاب كلمات أحمد، ثم عادت للحديث بلهجة مترددة قليلا:

- مع احترامي لكلامك، بس المجرم أيًّا كان لازم يكون عنده درجة كافية من الاستعداد النفسي لارتكاب جريمة، ياما ناس وقعت تحت ضغوط

كبيرة وكان عندها دوافع قوية لكنها قدرت تبعد عن الطريق الغلط، مش أي حد جعان أو فقير ممكن يسرق، ومش أي شاب مش قادر يتجوز أو عنده حرمان جنسي ممكن يتحول لمغتصب، المجرم غالبًا بيكون شخص ضعيف جدًّا قدام شهواته ومعندوش أي قدرة على التحكم فيها، ودي صفة أساسية من الصفات اللي بندور عليها في الاستبيان على فكرة.

شعر أن كلامها منطقيّ جدًّا ولكنه استمر في المجادلة بشيء من العناد وقال:

- طيب في حالتنا دي مثلا، إيه هي الشهوة اللي ممكن تخلي إنسان عادي يرتكب جريمة قتل؟ إيه نوع الإشباع اللي بيدور عليه؟؟

- على فكرة أنا مش ضد فكرة الدافع، لكن حاليا ما أقدرش أعمل أي حاجة غير إني أتجاهلها وأحاول أدرس نفسية المشتبه فيهم، دة شغلي على الأقل، والمفروض المباحث تعمل شغلها.

بدا واضحًا جدًّا أنها تريد اختصار الحديث وعدم الاستمرار في هذا النقاش العلمي، لم يرد أحمد وراوده شعور بسيط بالحرج حتى تابعت:

- طيب يا أحمد، أنا هاقفل بقى عشان وصلت، مع السلامة دلوقتي.

- الله يسلمك.

على الرغم من أنها ليست مكالمة طويلة إطلاقًا، وعلى الرغم من أن المناقشة كانت تدور في نطاق علمي بحت ولم تخرج عن نطاق المهمة الموكلة إليهما، إلا أنه قد راوده إحساس عارم بالنشوة بمجرد إغلاق الخط، كأنه قد استنشق رحيق وردة جورية ربيعيّة زاهِية المنظر، أو كأنه قد داعب طفلًا في

عامه الأول ورأى تلك الابتسامة العذبة على شفتيه، ذلك الأثر الجميل الذي يبقى في القلب حين يرى جمالًا يفوق قدرته على الاحتمال، ويعلو عن سقف توقعاته، وعلى الرغم ممن يلامسه على أن يظل أسيرًا له رافضًا العودة مرة أخرى لأرض الواقع.

مرت لحظات جميلة لم تفارق الابتسامة شفتيه فيها، ثم بدأ يسترجع حديثه معها ويحاول أن يتذكر نبرة صوتها، بعض الجُمَل التي تلفظت بها وطريقتها المميزة في نطق كل كلمة، أكان أسلوبه معها متَّزِنًا أم به شيء من الاندفاع والحماقة؟ يراجع تفاصيل المكالمة فيشعر بأنه قد أبلى بلاءً حسنًا إلى حدٍّ ما، ويتوقف عند تلك الجزئية التي تحدث فيها عن الأقنعة الجوفاء التي يرتديها الناس أمام بعضهم بعضًا والتي لا تمت لطبيعتهم بِصِلة، يشعر للحظة أنه هو نفسه كان يرتدي ذلك القناع أمامها ليبدو شخصًا حكيمًا واثقًا، بينما هو في الحقيقة عاشق متيَّم، عاشق يكفيه أن يظلّ قريبًا ممن يحب ولا يطمح في مزيدٍ، ولا يهتم كثيرًا إن أحرقته تلك الشمس التي لم يعد يرغب في الابتعاد عنها قيد أُنملة.

بخطوات واثقة ثابتة، اتجهت ياسمين نحو حجرة مدير البنك وبيدها تلك الحقيبة الجلدية التي تحوي نسخا عدة من الاستبيان، حتى وصلت إليها، فطرقت الباب مرتين برقة ثم فتحته بهدوء، لتجد أمامها رجلًا بدينًا أصلعَ الرأس في أوائل الخمسينات، يجلس خلف المكتب ويتحدث في الهاتف بجديّة، وما إن وقع بصره عليها حتى تصلبت عيناه عليها للحظة بانبهار، ثم أنهى مكالمته سريعا، وبدأت تظهر عليه تلك الأعراض التي تعرفها جيدا، والتي شاهدتها كثيرًا فيما مضى ولم تهتم، أعراض الإعجاب الشديد بجمالها اللافت والذي يتبعه عادة نوع من المعاملة الخاصة والرقة المبالغ فيها، كلها أمور لم تنجح في جذب انتباهها تجاه أي شخص بل بالعكس، يسقط أي رجل من نظرها تلقائيًّا إذا شعرت باهتمامه بشكلها وجمالها فقط ورغبته في التقرب إليها لهذا السبب، ربما لأنها لم تستطع أن ترى في جمال الشكل أيَّة ميزة مقارنة بجمال العقل والفكر، الأمر الذي دفعها إلى الاهتمام المستمر بدراستها وجعل هوايتها الأولى والأخيرة هي القراءة، هي ترغب في أن تكون جميلة ليس إلا، ولكن من وجهة نظرها هي.

نهض الرجل من مكتبه بحماسة ومد يده إليها مصافحا، فصافحته بشيء من التحفظ..

- أهلا وسهلا، اتفضلي يا فندم اتفضلي.
- شكرًا لحضرتك.

- أؤمريني يا فندم؟ تشربي إيه أولا؟

- لا، ولا حاجة شكرًا.

نظر إليها معاتبًا، الابتسامة المصطنعة تملأ وجهه.

- لا لا مينفعش الكلام دة.

يضغط الجرس المثبت في مكتبه فيدخل الساعي فورا ويتابع:

- دة واجب الضيافة، احنا مش بُخلا على فكرة ها ها ه..

ضحكة سمجة من شخص أكثر سماجة، لم تبتسم له هذه المرة، بل التفتت نحو الساعي وأردفت بشيء من الامتعاض:

- قهوة مظبوطة لو سمحت.

أومأ الساعي برأسه باحترام ثم سارع بالخروج، فحولت بصرها تجاه مدير البنك وبدأت في الحديث بتركيز..

- أعرف حضرتك بنفسي، أنا ياسمين الخطيب، بشتغل معيدة في كلية الآداب جامعة القاهرة، وحاليا بحضر رسالة الماجستير بتاعتي واللي هيكون موضوعها عن مشاكل التكيف بين الأفراد في بيئة العمل نفسها.

- موضوع مهم فعلا.

- حضرتك عارف طبعا إن اختلاف الطباع والصفات الشخصية للأفراد اللي بيشتغلوا في مكان واحد ممكن تسبب مشاكل كتير، خصوصا وإن كل الموظفين –حتى الناجحين منهم– من الطبيعي يكون عندهم عيوب جوهرية في شخصيتهم بتظهر مع الاحتكاك اليومي المباشر.

أومأ الرجل برأسه موافقا عدة مرات..

- دة أكيد، احنا بنشوف كتير يا أستاذة والله.

- وعشان نقدر نحدد إيه هي أكتر الصفات السيئة المنتشرة بين الأفراد في مؤسسة واحدة، عملنا استبيان بسيط جدا، زي استطلاع رأي كدة، الاستبيان ده مكتوب فيه أسماء كل موظفين البنك وهيتوزع على كل واحد منهم نسخة منه، ومطلوب من كل موظف إنه يكتب قدام كل اسم من أسماء زمايله أكتر صفة سلبية بيشوفها فيه، بشرط إنها تكون صفة دايمة وبتتكرر علطول مش نتيجة لموقف معين مثلا، وهيبقى مطلوب من الموظف برضو إنه يكتب أكتر صفة سيئة في شخصيته هو كمان من وجهة نظره طبعا، وفي النهاية الموظف مش هيوقع على الاستبيان وبكدة يبقى الموضوع فيه شفافية أكتر ومنعا لأي إحراج.

سكتت ياسمين للحظات وأخذت تتأمل تعبيرات وجه الرجل، حاولت ألا تبدو مرتبكة أمام نظراته المتفحصة، ثم تابعت:

- إحنا جمعنا أسماء كل موظفين الفرع من المركز الرئيسي للبنك، بما فيهم طبعا الموظفين اللي غايبين أو واخدين أجازات، ودول مش هيشاركوا معانا في الاستبيان لكن أسماءهم هتكون مكتوبة فيه طبعا وهيكون مطلوب من زمايلهم تحديد أكتر صفة بيكرهوها فيهم.

- طيب ممكن أعرف إيه وجه الاستفادة من الاستبيان دة بالظبط؟ يعني أنتِ هتستفيدي إيه لما تعرفي إن الموظف دة أناني ودة عصبي ودة مهمل؟

- الموضوع مش هيتم بصورة فردية، احنا هنعمم التجربة دي في أماكن مختلفة ومجالات غير مجال البنوك، وهنحاول نربط أكتر الصفات السيئة اللي

بيتكرر ظهورها بمؤشرات تانية، زي بيئة العمل والأجور وطبيعة العمل نفسه، دة ممكن يوصلنا إننا نكشف طبيعة العلاقة بين سلوك الفرد نفسه والجو العام اللي بيشتغل فيه.

ظهر التفهم والرضا على وجه مدير البنك فكتمت في نفسها ابتسامة ساخرة، من الواضح أن أداءها كان مقنعًا.

- طيب تحبي نبدأ إمتى؟

- دلوقتي لو أمكن.

بدا وكأن الرجل قد تذكر فجأة أمرًا ما فاستدرك:

- بالمناسبة يا أستاذة، أنا عندي خمس موظفين في أجازة مرضي، عملوا حادثة جامدة ربنا يشفيهم، دول طبعا مش مهم يدخلوا في الاستبيان؟

كادت ياسمين أن تصاب بأزمة قلبية بعد هذه الجملة، ثم تماسكت بصعوبة وقالت:

- لا إزاي يا فندم؟ الاستقصاء عشان نتيجته تبقى معتمدة لازم يشمل كل موظفي البنك، دي معايير علمية ما فيهاش نقاش.

مط الرجل شفتيه كدلالة على عدم الاعتراض.

- خلاص تمام، معلش هستأذنك تستني معانا لبعد الساعة 2 لأن دلوقتي فيه جمهور وما أقدرش أعمل اجتماع لكل الموظفين غير لما الخزنة تقفل.

- أوكي مفيش مشكلة.

مال الرجل برأسه للأمام قليلا، وابتسم ابتسامة صفراء ثم أردف:

- واهي فرصة أتعرف عليكِ أكتر.

رمقته بنظرة خالية من التعبير، ثم ابتسمت في وجهه ابتسامة دبلوماسية وقالت:

- أنا هاستنى برا في الصالة لحد الميعاد، أستأذنك.

ونهضت من مكانها سريعا غير مهتمة بنظراته غير الراضية.

أنهى الدكتور عمرو آخر محاضراته، ليعود إلى حجرة مكتبه بانتظار مقابلة ياسمين وفق الميعاد المحدد بينهما، لم تتأخر كثيرا لحسن الحظ، فلم تمر سوى دقائق معدودة حتى لمحها تدخل من باب الحجرة المفتوح بطلتها الجميلة المعهودة، ابتسم لها فتابعت الدخول، تبدو مرهقة إلى حد ما بتلك الهالات السوداء حول عينيها.

- مساء الخير يا دكتور.

قالتها وابتسمت ابتسامة باهتة قليلا ثم جلست قبالته.

- مساء النور، شكلك مرهق جدًّا، أنتِ كويسة؟

- آه الحمد لله، بس ما نمتش كويس امبارح، وأخدت وقت كتير عشان أقدر أطلع نتيجة الاستبيان في نفس اليوم.

توقفت عن الحديث لتفتح ذلك الملف الأحمر الذي تمسكه بيدها لتخرج منه أجندة صغيرة رمادية اللون.

- تحب حضرتك نبدأ؟

- قولي لي الأول، مدير البنك ما شكّش في أي حاجة؟

هزت رأسها نفيا وقطبت حاجبيها ثم قالت:

- لا إطلاقا.

- طيب اتفضلي.

فتحت ياسمين أجندتها الصغيرة ثم بدأت قراءة تلك الملاحظات التي دونتها بها..

- بالنسبة للمشتبه فيه الأول (محمد ناجح)، أغلب الأقوال أجمعت على إنه شخص أناني جدًّا، بيحب نفسه لأقصى درجة وبيسعى دايما إنه يحقق لها أكبر قدر ممكن من المنفعة حتى لو على حساب غيره، الصفة دي بتخليه شخص غير متعاون إطلاقا وبتمنعه من قبول أي أعمال إضافية تُسنَد ليه، آراء تانية شافت إنه شخص انتهازي ممكن ييعمل أي حاجة علشان يوصل للي هو عايزه، وفيه صفة تالتة ظهرت واتكررت كذا مرة وهي صفة الكذب والقدرة العالية على تزييف الحقايق، وطبعا القدرة دي بيستخدمها دايما في حالة ارتكاب أخطاء عشان يهرب من المساءلة.

أومأ الدكتور عمرو برأسه متابعا، فاستكملت ياسمين حديثها باللهجة الجادة نفسها..

- المشتبه فيه التاني (إبراهيم مغاوري)، تقريبا أكتر من 70٪ من الآراء أجمعت إنه شخص غير منضبط وغير ملتزم إطلاقا بخطط وقواعد العمل، شخص مهمل وشغله ضعيف ومليان أخطاء، ومن الصعب جدًّا إنه يقدر يكمل أي شغل بيتكلف بيه من البداية للنهاية من غير مساعدة، تركيزه قليل تحت ضغط العمل ودة بيخلي الاعتماد عليه بصفة أساسية شيء شبه مستحيل، نسبة ال30٪ الباقية بتشوف إنه شخص عصبي وصوته عالي، لكن في رأيي إن دي محاولة طبيعية منه عشان يداري جوانب القصور اللي عنده.

أنهت حديثها ورفعت بصرها نحو الدكتور عمرو فرأته ينظر إليها بتركيز شديد واهتمام واضح..

- تحب حضرتك تكتب اللي أنا بقوله؟

- لا مش مشكلة.. كمّلي لو سمحتِ.

قلبت الصفحة مرة أخرى ثم واصلت القراءة..

- المشتبه فيه التالت (أحمد الدالي)، دة بالذات ما أخدش مني أي مجهود وأنا بحلل نتيجة الاستبيان، لأنه الشخص الوحيد اللي زمايله ما شافوش فيه غير عيب واحد بس، ودة كان شيء غريب وغير تقليدي شوية إن أكتر من 30 موظف يكون ليهم نفس الرأي، كلهم شايفين إنه شخص عدواني جدًّا وعلى استعداد دائم للخناق، وإنه بيفسر دايما أي كلام يتقال له تفسير سيء ومش حقيقي، دايما نواياه سيئة تجاه زمايله ومتوقع إنهم هيحاولوا يأذوه بأي طريقة، ودة اللي بيخليه يندفع دايما وينفعل لأتفه الأسباب، تخيل حضرتك إن فيه واحد من الموظفين قال عنه (موظف سريع الاشتعال).

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي الدكتور عمرو أطلق بعدها ضحكة قصيرة، فابتسمت ياسمين بدورها ثم أردفت:

- إيه رأي حضرتك في الصفة دي؟

مط الدكتور عمرو شفتيه ثم قال:

- عادي، الشخصيات دي موجود منها كتير في الواقع، وأحيانا بيبقى عنده حق في مواقف معينة، ممكن يكون شخص دوغري زيادة عن اللزوم أو

شخص مش بيتقبل الهزار، وممكن ما تكونش دي طبيعة شخصيته لكنه مر بتجارب صعبة في حياته وصَّلته للمرحلة دي.

سكتت ياسمين للحظة وبدا عليها التردد، شعر الدكتور عمرو أنها تود أن تتكلم في أمر ما، ثم بدا أنها قد حسمت أمرها:

- الحقيقة يا دكتور أنا بقيت دلوقتي متلخبطة جدًّا، احنا عملنا الاستبيان دة عشان بندور على صفات معينة مرتبطة بشخصية الإنسان العدواني أو المجرم، ازاي لما نلاقي إن صفة من الصفات دي موجودة نخليها تمر مرور الكرام كدة؟ يبقى إيه فايدة اللي بنعمله من الأساس؟

كانت تتحدث بلهجة يشوبها قدر بسيط من الانفعال، ابتلع الدكتور عمرو تلك الطريقة في الحديث مراعاة لما بذلته من جهد، ورأى أنه من الأفضل أن يوضح لها الأمور بشيء من الصبر..

- بصي يا ياسمين، أنا عارف وأنتِ عارفة إن صفات الشخصية السيكوباتية كتيرة جدا، ومنها صفات موجودة في ناس عادية وطبيعية ومالهاش أي سوابق إجرامية، لكن أنا كنت بدور في الاستبيان دة على حاجة خارجة عن المألوف، شخص يكون بتجتمع فيه كل الصفات دي أو معظمها، أو يكون عنده انحرافات سلوكية معينة ممكن نعتبرها مؤشر لاحتمال ارتكاب جريمة، يعني في حالة الشخص العدواني دة مثلا كان ممكن أفكر فيه لو عرفت إنه استعمل العنف قبل كدة مع زمايلة أو اشتبك معاهم اشتباك دموي، وفي كل الأحوال هيبقى صعب جدا إني أحدد مدى سيكوباتية الشخصية من محدد واحد بس، فاهماني؟؟

ظهر الرضا والتفهم على ملامح ياسمين فأشار لها الدكتور عمرو أن تكمل القراءة..

- المشتبه فيه الرابع (هاني الشربيني)، زمايله بيقولوا عنه إنه شخص بليد إلى حد ما، شخص مش بيتعلم من أخطائه وبيكررها دايما برغم توبيخه ولفت نظره للأخطاء دي أكتر من مرة، بعض الآراء قالت عنه إنه شخص نسّاي ومش بيستوعب المعلومة بسهولة، متهيألي هما يقصدوا نفس المعنى بس بيحاولوا يكونوا مهذبين شوية، العيب التاني اللي ظهر في الاستبيان إنه شخص فظ جدًّا في التعامل مع الستات لدرجة قلة الذوق، ومتحامل عليهم بشكل مستمر زي ما يكون عنده عقدة معينة منهم، وسلوكه الغريب دة مش بيظهر مع زمايله، بس لأ مع العملاء بتوع البنك كمان، وطبعا اتجازَى بسببه أكتر من مرة.

سكتت ياسمين وابتلعت ريقها، ثم قلّبت الصفحة لتصل للجزء الأخير.

- كدة مش فاضل غير المشتبه فيه الأخير (مجدي الهندي)، الموظفين شايفين إنه شخص معندوش أي قدرة على تحمل المسئولية، دايما شايف إن زمايله هما المسئولين عن أي غلط أو تقصير بيحصل في الشغل، ودة اللي بيخليه يلومهم ويأنبهم طول الوقت حتى لو المشكلة حصلت في شغله هو، علطول ناقم على حياته وعلى أوضاعه المعيشية والوظيفية، ومؤمن تماما إنه يستحق الأفضل، إنسان دائم الشكوى بيتكلم أكتر ما بيشتغل بكتير، وبعكس زميله اللي فات، مجدي شخص ضعيف جدًّا قدام الستات ودة اللي بيخليه يميزهم في المعاملة بشكل واضح ومستفز.

توقفت ياسمين عن الكلام وأغلقت أجندتها، ثم رفعت بصرها تجاه الدكتور عمرو قائلة:

- أنا كدة خلصت.

تأمل الدكتور عمرو ملامحها المنهكة، فشعر تجاهها بشيء من الامتنان الممتزج بالشفقة.

- شكرًا يا ياسمين، أنتِ عملتِ اللي عليكِ وزيادة، وآسف على تعبك مرة تانية.

لم يَبدُ عليها أنها قد سمعت تلك الجملة الأخيرة وردَّت بفضول:

- ممكن أعرف رأي حضرتك إيه؟

تنهد الدكتور عمرو، ثم نظر للأسفل وأسند جبهته على قبضتيه المضمومتين للحظات، ثم نظر إليها فجأة وقال:

- يعني احنا باختصار قدّامنا واحد أناني وكداب وانتهازي، والتاني غير منضبط ومعندوش أي قدرة على الالتزام بأي حاجة، والتالت عدواني وانفعالي، والرابع بطيء الفهم وعنده صعوبات في الاستيعاب، والخامس بيتهرب من المسئولية دايما ويرميها على غيره، مظبوط كدة؟؟

- تمام يا دكتور.. ردت وبعينها تظهر نظرة ترقب..

- طيب راجعي كدة الصفات دي وفكري فيها شوية، بتفكرك بحاجة؟

أطرقت للحظات بدا فيها أنها تسترجع ما سمعته وتفكر فيه بتأنٍّ، حتى لمعت عيناها فجأة والتفتت بحدة تجاه الدكتور عمرو وعلى شفتيها ابتسامة مليئة بالدهشة:

- معقول؟؟ قالتها بلهجة غير مصدِّقة.

- تخيلي؟؟ الصفات اللي قولتيها كلها بلا استثناء، تطلع من الصفات الأساسية للشخصيات السيكوباتية، ويتضح أن كل واحد من المشتبة فيهم عنده صفة صريحة من صفات الشخصية المريضة المعادية للمجتمع واللي عندها استعداد فطري لارتكاب الجريمة، صدفة عجيبة فعلا.

بدت علامات الاندهاش وعدم التصديق واضحة على وجه ياسمين لبرهة، ثم تذكرت فجأة أمرًا ما فقالت:

- بس حضرتك أخدت بالك من آخر اتنين وموضوع علاقتهم بالستات دة؟ واحد بيكرههم بصورة فجة والتاني ناعم معاهم زيادة عن اللزوم، أنا شايفة إن الأولاني ممكن يبقى مثير للشك أكتر، الكراهية دي أكيد ليها سبب، موقف معين مثلًا حصل معاه وسبب له العقدة دي، أو طفولة صعبة بسبب معاملة الأم أو زوجة الأب، متهيألي الحالة دي محتاجة إننا ندرسها أو نعمل عنها تحريات.

هز الدكتور عمرو رأسه نفيًا ثم قال:

- بالعكس، الشخص اللي بيبين مشاعره وبيتعمل على طبيعته –حتى لو الطبيعة دي مش بتعجب ناس كتير– هوه في الغالب شخص غير خبيث، ممكن تكون حصلت له مشاكل مع الستات قبل كدة زي ما قلتِ، لكن مادام الكراهية دي بتظهر في التعامل العادي يبقى مفيش خطر منها، القاتل شخص ذكي وكتوم يا ياسمين، مش شخص ساذج بيطلع اللي في قلبه على لسانه ومبيقدرش يداري مشاعره وانفعالاته.

- طيب والتاني؟ الشخصية اللزجة اللي بتنجذب لكل الستات وبتحاول تقرب منها؟

- ولا دة برضو، دة واحد كل هدفه إنه يعمل علاقات كتير والعلاقات بالنسباله مصدر استمتاع مش أكتر، إيه اللي يخليني أشتبه فيه من الأساس؟ على أسوأ تقدير هنفترض إنه حاول يتصرف بطريقته دي مع القتيلة لكنها صدته أو أحرجته، في الحالة دي هيبعد عنها بسرعة وهيحاول يدور على غيرها، لأن شخصيته مش هتقف عند واحدة بعينها ولا هتديها أكبر من حجمها.

أومأت ياسمين برأسها موافقة، ثم خفضت بصرها وبدت عليها خيبة الأمل ثم تمتمت بضيق:

- طبعا بالشكل دة بقى صعب جدًّا إننا نستبعد أي واحد من المشتبه فيهم، وكمان ما نقدرش نشك في واحد معين أكتر من باقي زمايله، أنا آسفة إني ما قدرتش أفيد حضرتك.

- لا لا إطلاقا بالعكس، أنتِ عملتِ المطلوب منك على أكمل وجه، وعلى فكرة الاستبيان دة من الناحية الأكاديمية يعتبر قيِّم جدا، وأنا أستأذنك إني أحتفظ بيه لأنه ممكن يفيدني في الأبحاث اللي بعملها عن زيادة معدل الجريمة في العشر سنين الأخيرة.

ظهر عليها قدر من الرضا، على الأقل لم يضِع مجهودها هباءً.

- طبعا موافقة يا دكتور، دي حاجة تشرفني.

بدا أنه لم يسمع تلك الجملة الأخيرة، فقال بشيء من الشرود الممتزج بالتجهّم:

- كمان الاستبيان دة وضح لي حاجة مهمة جدا..

رمقته ياسمين بتساؤل، فأكمل حديثه بالنبرة المتجهمة نفسها:

- للأسف نتيجة الاستبيان بتقول إننا كلنا مرضى مهما حاولنا نبان مثاليين قدام بعض، لما كل المشتبه فيهم يبقى عندهم اختلالات جوهرية في الشخصية ممكن تدفعهم في أي وقت لارتكاب أي جريمة، تبقى دي حاجة تخوّف، واللي يخوِّف أكتر هو البعد المستمر عن الدوافع الدينية والأخلاقية، كدة ممكن أقولك وأنا مقتنع جدا إننا داخلين على كارثة حقيقية، ولو الوضع دة ما اتغيرش هنبقى عايشين في غابة وكل اللى بيحركنا هي رغباتنا وشهواتنا وبس، ويا عالم هييجي يوم ونفوق ولا لأ.

الوقت يمضي بسرعة والأمور تزداد تعقيدًا، لم تفلح محاولات فريقه الصغير في توضيح الصورة، لتعود الكرة إلى ملعبه ويزداد العبء ثقلًا على كاهله، الأمل الوحيد الآن في قدرته على تحليل شهادة الشهود والوقوف على أيّة ثغرة أو نقطة ضعف فيها، عليه الآن أن يستحضر كل ما تعلمه على مدار حياته، سنوات من الشغف والاجتهاد والمثابرة دفعته لكي يكون الرجل الأول في هذا المجال، مكانةٌ طمح إليها كثيرًا وعندما بلغها كان عليه أن يدفع ضريبة الشهرة.

أمام حاسوبه المحمول يجلس ممسكا بيده تلك الاسطوانة التي تحوي تسجيلات الكاميرا، وعلى المكتب ترقد تلك المفكرة الصغيرة المدون بها ملخص الاستجوابات، أدوات بسيطة وبدائية إلى حد ما، ولكنه ليس بحاجة للمزيد، فعقله اليوم هو أداته الأهم والأكثر فاعلية، وخبرته وموهبته الكبيرة في التحليل النفسي هي وسيلته الوحيدة لقراءة ما بين السطور.

بهدوء وروية مبالغ فيهما، يفتح المفكرة الصغيرة ليطالع ما بها من شهادات بمنتهى البطء والإمعان، يركز في كل حرف ويحاول ترتيب أفكاره، بتلك الطريقة العلمية التقليدية في البحث والتي تعتمد على الملاحظة والاستنتاج، فتظهر له نتائج أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها مذهلة ولا تخضع لأي توقع، ولكنها –في الوقت نفسه– تعد منطقية إلى أقصى حد، يشعر بالثقة والاطمئنان تدريجيًّا لتلك النتائج التي يصل إليها على الرغم من غرابتها، فيزداد حماسة

ويتابع العمل غير آبهٍ بالساعات التي تمضي بلا حساب، تسجيلات الكاميرات بها مفاجآت أخرى، لا داعي للتعجب فهي ليلة المفاجآت بلا شك.

ينتهي من عمله أخيرًا، فيسرع بالاتصال بالعميد محسن ليحدد معه ميعاد المقابلة، بداخله إحساس غريب يجمع بين النشوة والتعب وعدم التصديق، أي إنجاز علمي وصل إليه اليوم، وأيّة قضية غير تقليدية سيقف أمامها المحللين الجنائيين طويلا.

الشعور بالرهبة نفسه يتكرر مرة أخرى على الرغم من عدم وجود أي مخاوف أو مخاطر، يبدو أنه شعور مرتبط بالمكان وطبيعته أو بالأشخاص ذاتهم، على الرغم من ذلك يواصل طريقه بثبات نحو حجرة العميد محسن محاولا أن يبدو متماسكًا هادئ الأعصاب، حتى يصل إليها فيفتح له الحارس الباب فورًا، من المؤكد أنه قد تلقَّى الأوامر بذلك، يبدو أن هناك من ينتظره على أحر من الجمر.

انتفض العميد محسن من مكانه فور رؤيته، تبدو ملامح القلق والانفعال واضحة جدًّا على وجهه المحتقن، يمد يده إليه مصافحًا بشيء من العجلة..

- أهلا يا دكتور اتفضل.
- أهلا يا فندم.

يصافحه بقليل من الارتباك. جلس العميد محسن فجلس هو، نظرات العميد محسن الجادة المتحفزة تشير إلى رغبته في التحدث عن نتيجة التحقيق مباشرة بدون الدخول في أي حوارات جانبية.

- أتمنى تكون وصلت لنتيجة مرضية.

يقولها العميد محسن بحزم. سكت للحظة ولم يرد، هو لا يعرف تحديدًا ما مفهوم النتيجة المرضية بالنسبة له.

- إن شاء الله تكون نتيجة سليمة ومنطقية ومبنية على أساس علمي.

قالها بشيء من الثبات والاقتناع، ولكن لم تعجبه تلك النظرات التي ظهرت في عين العميد محسن بعد تلك الجملة، نظرة بها قدر من الاستفهام

والاستنكار، وكأنه لم يعجبه، وصف نتيجة التحقيق بهذا الوصف، حاول أن يهرب من ذلك الاتجاه غير المريح في الحديث فتابع:

- تحب حضرتك أبدأ؟

- يا ريت..

تنحنح ثم أخرج مفكرته المعهودة من تلك الحقيبة السوداء المميزة التي بحوزته، ووضعها على المنضدة الصغيرة أمامه، ثم وضع الحقيبة جانبًا وبدأ استرسال الحديث:

- الحقيقة، الموضوع في البداية كان شائك وصعب جدًّا، زي ما أكون بدور على إبرة في كومة قش بالظبط، خصوصا إن مفيش أي دوافع ظهرت لارتكاب الجريمة ولا أي أدلة ممكن تخليني أشك في حد معين، لكن كان واضح إن فيه أساسيات لازم أعيد البحث فيها مرة تانية بشكل مفصّل، أول حاجة طبعا كانت شهادة الشهود، كانت خطوة مهمة إني أعيد استجوابهم عشان أقدر أحلل شهادتهم نفسيًّا بأسلوب علمي، والحقيقة إن دي كانت الجزئية الأصعب ودة اللي خلاني أعملها بنفسي، الجزئية التانية اللي كنت عايز أستوفيها بشكل مرضي هي شهادة عمال الاستراحة باعتبارها مفتاح مهم في القضية، لكن للأسف إعادة استجوابهم ما أسفرتش عن أي نتيجة، شهادة عادية جدًّا ما فيهاش أي أقوال متضاربة أو متحرفة من شهادتهم الأولى، بالإضافة لأن تحليل لغة الجسد بالنسبة ليهم أكد صدقهم تماما بشكل قاطع، مهمة استجوابهم قام بيها الأستاذ (أحمد رأفت) ودة واحد من أكفأ المعيدين عندي في القسم.

توقف عن الكلام للحظة ليعيد ترتيب أفكاره، ثم تنهّد قبل أن يقول:

- النقطة التانية اللي حاولنا نبحث فيها هي الصفات الشخصية للمشتبه فيهم، حاولنا نعرف أكتر عن أسوأ الجوانب الموجودة في الشخصيات دي، وهل ممكن تكون أي شخصية فيهم عندها استعداد فطري أو قابلية عالية لارتكاب الجرايم أكتر من غيرها، طبعا النتيجة ما كانش ممكن نعرفها إلا من خلال الناس اللي بتتعامل معاهم بصفة مستمرة وتعرف عيوبهم كويس جدًّا، ولأن شرط السرية موجود في التحقيقات من البداية، ما كانش ينفع أبدًا إننا نعمل تحريات مع الأهل أو الجيران أو أي فرد من بيئة المشتبه فيهم، استقر رأْيِنا في الآخر إننا نعمل استقصاء أو استطلاع رأي مع زمايل المشتبه فيهم في البنك، وكان هدف الاستقصاء هو الوصول لأسوأ صفة في شخصية المشتبه فيهم وتحديد مدى خطورة الصفة دي، النتيجة المدهشة والمخيبة للآمال في نفس الوقت إن كل المشتبه فيهم طلع عندهم صفة أصيلة من صفات الشخصية السيكوباتية، يعني كلهم تقريبا عندهم نفس درجة الاستعداد لارتكاب أفعال إجرامية أو أعمال مخالفة للقانون، وطبعا مع عدم وجود أي سوابق لأي حد فيهم في ارتكاب أي جريمة حتى لو كانت بسيطة، بقى صعب جدًّا إننا نحصر مجال الاشتباه في شخص واحد بعينه، الاستطلاع دة كان شامل جميع موظفي البنك وتم بدون الإعلان عن سببه الحقيقي، واللي قام بيه تلميذتي المعيدة ياسمين الخطيب وأنا أشهد لها بالكفاءة والجدية المتناهية.

سكت الدكتور عمرو ليرى تأثير كلماته على العميد محسن الذي ظهر على ملامحه قدرٌ كبير من الإعجاب..

- واضح إننا كان عندنا حق لما قررنا نستعين بيك يا دكتور، وواضح كمان إنك بذلت مجهود ممتاز مع فريق العمل بتاعك، اتفضل كمّل.

ارتفعت معنويات الدكتور عمرو قليلا بعد هذا الإطراء، وارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة لم تدم سوى ثانية واحدة ثم استطرد:

- كدة ما بقاش فاضل غير شهادة الشهود ودي كانت مهمتي، إعادة استجوابهم مرة تانية مع تطبيق أسس علم النفس الجنائي اللي درستها وبدرَّسها، وأعتقد إن نتيجة الاستجواب تعتبر مفاجأة بكل المقاييس، أنا هبدأ أعرضها على حضرتك وأعتقد إن رأيك مش هيختلف عن رأيي..

أشار العميد محسن بيده إليه لكي تابع حديثة، فالتقط الدكتور عمرو المفكرة من أمامه وفتحها حتى وصل لصفحة معينة، ثم استنشق نفسًا عميقًا وقال:

- بالنسبة للشاهد الأول (محمد الإتربي)، كانت شهادته غريبة إلى حد ما، هو اتعرف على المشتبه فيه الأول (محمد ناجح) من تسريحة شعره، لكنه ما شافش وش المشتبه فيه بشكل واضح، بغض النظر عن النقطة دي وهل هي أصلا تعتبر دليل كافي أو لأ، كان فيه جوانب تانية في الشهادة خليتها محل شك.

سكت للحظة ليبتلع ريقة ثم تابع سريعا:

- سن الشاهد 68 سنة ودة سن كبير نسبيًّا، ومن الناحية العلمية يعتبر التقدم في السن من العوامل الطبيعية اللي بتأثر على قدرة أي شخص في استرجاع المعلومات وكفاءة ودقة عملية التذكر نفسها، خصوصا لو الشخص

دة مصاب كمان بأمراض مزمنة زي الضغط والسكر، وقتها بيكون صعب جدًّا على ذاكرته إنها تحتفظ بالمعلومات لوقت طويل خصوصا لو كانت معلومة مش مهمة، لاحظ كمان حضرتك إن الشاهد دة هو آخر شاهد تم استجوابه، ومن المعروف أن كل ما بتزيد الفترة اللي بتفصل بين حدوث الجريمة وبين الإدلاء بالشهادة كل ما نسبة الدقة بتكون أقل، كل دة كوم بقى وعملية المية البيضا اللي عملها في عنيه دي كوم تاني، لأن دة مؤثر مباشر على الرؤية، ووارد جدًّا إنه يزود نسبة وقوع الخطأ أو حدوث خلط بين المشاهد وبعضها.

رمقه العميد محسن بنظرة تملؤها الحيرة، فأضاف:

- برغم كل دة، أنا كنت متأكد تمامًا من إنه صادق في أقواله، كان باين جدًّا إنه معندوش ذرة تردد أو شك، لحد ما راجعت تسجيلات الكاميرات اللي متثبتة على بوابة الاستراحة، وهنا تحديدًا اكتشفت المفاجأة..

بلغ الاهتمام والإنصات لدى العميد محسن ذروته وتنبهت كافة حواسه، فمدَّ الدكتور عمرو يده بداخل حقيبته الصغيرة وأخرج منها بعض الصور، ثم وضعها بالترتيب أمام العميد محسن على المكتب.

- حضرتك دي صور سجلتها كاميرات المراقبة في الاستراحة في أوقات مختلفة قبل الحادثة، أول صورة دي تاريخها قبل الحادثة بأسبوع، والصورة التانية دي قبل الحادثة بخمس أيام، والصورة التالتة قبل الحاثة بيوم، لو لاحظت حضرتك إن الشيء المشترك بين ال3 صور هو المشتبه فيه (محمد ناجح)، وهتلاحظ فعلا إن تسريحة شعره هي نفس التسريحة اللي قال عليها عم (محمد) الشاهد في أقواله.

لم يترك الفرصة هذه المرة للعميد محسن لكي يسأل أو يصاب بالحيرة، وأخرج من حقيبته الصورة الرابعة ثم تابع سريعا:

- الصورة دي بقى لقطتها كاميرات المراقبة يوم الحادثة، وهي بتجمع بالصدفة بين المشتبه فيه الأول (محمد ناجح) وزميله في الشغل (أحمد الدالي)، حضرتك شايف أي حاجة غريبة في الصورة؟

دقق العميد محسن النظر قليلا، ثم رفع بصره نحو الدكتور (عمرو) قائلا:

- مش واخد بالي، إيه الغريب يعني؟ صورة طبيعية.

- طيب أسهلها على حضرتك، مش حاسس إن فيه أي حاجة مشتركة بينهم؟

أعاد العميد (محسن) النظر مرة أخرى إلى الصورة محاولا إيجاد نقاط التشابه، ولم تمر سوى لحظة واحدة حتى ارتسمت نظرة تعجب في عينيه، ثم أردف بذهول:

- نفس تسريحة الشعر؟

- بالظبط يا فندم، صدفة متحصلش غير في الأحلام بس، (أحمد الدالي) كان عامل نفس تسريحة شعر (محمد ناجح) في اليوم دة، برغم إنه في الأحوال العادية بيسرح شعره بشكل مختلف تماما.

بدا بعض التردد والشك على ملامح العميد محسن، فأراد الدكتور عمرو أن يخرجه من تلك الحالة فأضاف:

- بكدة ممكن نستنتج إن الشاهد اتعرف على المشتبه فيه من خلال صور أرشيفية بيظهر فيها كل واحد من المشتبه فيهم الخمسة بشكله الطبيعي المعتاد،

أو ممكن يكون الشاهد عارف مسبقا إن (محمد) هوه اللي بيسرح شعره بالشكل دة بحكم تواجدهم في الاستراحة في نفس التوقيت بصفة شبه يومية، في كل الأحوال الشهادة بالوضع دة ما تعتبرش دليل كافي على ارتكاب المشتبه فيه للجريمة، لأن فيها من النفي نفس القدر الموجود في الإثبات وبالتالي مستحيل نسترشد بيها.

بدا أن العميد محسن لم يستوعب بعدُ تلك الحالة نادرة الحدوث، وشعر الدكتور عمرو أنه يجد صعوبة في استيعاب الموقف فارتسمت على شفتيه ابتسامة تهكم وقال:

- لسة بدري يا فندم على الاستغراب اللي حضرتك فيه دة، التقيل لسة جاي.

رفع العميد محسن نظره إليه ببطء ولم يرد، فأكمل حديثه لكيلا يضيع مزيدًا من الوقت:

- الشاهد التاني (إسماعيل عبد الهادي)، من أول ما دخل عليا وأنا حاسس بارتباكه المبالغ فيه، أكيد لما الجهات الأمنية تستدعي حد أكتر من مرة عشان تاخد أقواله فدي مش حاجة ظريفة ولا مريحة أبدًا، لكن حركات وانفعالات الشاهد ده ما كانتش بتدل على إنه خايف الخوف العادي المقبول في المواقف اللي زي دي، وده كان باين جدًّا في ردوده العدائية غير المبررة، طبعا كنت محتاج لأدلة أكتر عشان أتأكد من كذبُه، وده اللي خلاني أعمللله اختبار كشف الكذب.

تراجع العميد محسن في مقعده، ثم تمتم بلهجة ساخرة:

- بسم الله ما شاء الله، وحضرتك جبت جهاز كشف الكدب ده منين؟ كان عندك واحد في البيت ولا إيه؟

لم تعجب الدكتور عمرو تلك اللهجة، من الواضح أن العميد محسن يجد صعوبة في التعامل بصورة طبيعية.

أطرق الدكتور عمرو برأسه ولم يرد، لحظات تمر بطيئة قبل أن يبادر العميد محسن بالحديث بهدوء:

- معلش اعذرني يا دكتور، ما قصدتش أزعجك، بس لاحظ إن كلامك غريب برضو.

رفع الدكتور عمرو بصره إليه بسرعة وقد بدا متحمسًا جدًّا لإيضاح وجهة نظره..

- إطلاقا يا فندم، فكرة جهاز كشف الكذب هي فكرة بسيطة جدًّا، بتعتمد على قياس تغيرات معينة بتحصل في جسم الإنسان لما بيرد على أي أسئلة بتتوجه له، وطبيعة التغيرات دي هي اللي بتبين إذا كان الشخص الخاضع للاستجواب بيكذب أو لا، على سبيل المثال سرعة النبض والتنفس وارتفاع ضغط الدم، دي كلها عوامل بيقيسها الجهاز بصورة تلقائية خلال الاستجواب، أنا مشيت على نفس النهج لكن الفرق الوحيد إني لاحظت التغيرات دي بنفسي، والنتيجة كانت مرضية جدا وأكدت لي إن الراجل ده فعلا غير صادق في أقواله، سرعة النبض كانت 110 نبضة في الدقيقة مع العلم إن المعدل الطبيعي هو 70 نبضة بس، وضغط الدم كان عالي جدا لدرجة إني

فكرت للحظة إني أنهي عملية الاستجواب، الضغط كان 190 على 110 مع ملاحظة إن الشاهد دة أساسا مش مريض بالضغط.

- ثانية واحدة بقى، هوه دة الشاهد اللي كنت عايز اللبانة علشانه؟

ملأت وجه الدكتور عمرو ابتسامة عريضة، واحمرّ وجهه قليلا ثم أردف:

- أنا بعتذر لحضرتك مرة تانية عن الطلب الغريب دة، دي تقريبا أقدم وسيلة استُخدمت في التاريخ لكشف الكذب، وسيلة بدائية كان بيستخدمها الصينين زمان لما بيشكوا في كدب أي حد، لكن ما كانوش بيستعملوا اللبان طبعا، الفكرة كلها بتعتمد على إن الإنسان اللي بيكدب بيكون ريقه ناشف بسبب زيادة التوتر، دي حاجة هما لاحظوها بالصدفة البحتة لكن العلم الحديث أثبت صحتها فعلا، إخواننا الصينيين كانوا بيخلوا الشخص اللي هما شاكين فيه يمضغ أي حاجة، شوية رز مثلا وبعدين يخرجوها من بؤه، ومن خلال كمية اللعاب في الشيء الممضوغ ده كانوا بيقدروا يحددوا مدى كذبه أو صدقه.

ظهر على وجه العميد محسن قدر من الدهشة الممتزجة بالشك ثم قال:

- وأنت لقيت إيه؟

- لقيت النتيجة اللي كنت متوقعها، اللبانة صلبة وناشفة جدا برغم إن الشاهد قعد يمضغها أكتر من خمس دقايق، يعني هو للأسف فشل في الاختبار وشكي فيه كان في محله.

- أيوة بس إيه سبب الكذب؟ لازم يكون فيه دافع، بالشكل دة أنا ممكن أدخله في دايرة الاتهام مع المشتبه فيهم، إيه اللي يخليني أعرف إن مش هو الجاني

وبيحاول يرمي عملته على أي حد؟

- أنا كمان فكرت في الجزئية دي، وعلشان كدة طلبت من أحمد إنه يسأل عمال الاستراحة عن أي مشاكل حصلت بين الشهود والمشتبه فيهم قبل الحادثة، في الأول كلهم قالوا إن مفيش حاجة حصلت وما كانوش فاكرين حاجة، لكن بعد الإلحاح في السؤال فجأة واحد منهم افتكر إن إسماعيل (الشاهد) وإبراهيم مغاوري (المشتبه فيه) حصلت بينهم خناقة كبيرة من فترة، باقي عمال الاستراحة أمّنوا على كلامه وبدءوا يفتكروا الواقعة لما زميلهم افتكرها، محدش كان عارف سبب الخناقة بالظبط، لكنهم قالوا إن إبراهيم ضرب إسماعيل وأهانه قدام الناس كلها، وإسماعيل ما قدرش يوقفه لأنه كان أضعف منه جسمانيًّا، لحد ما الناس اتدخلت وقدروا يخلصوه من إيده بالعافية.

- ممم.. كدة قدرنا نعرف دافع الكدب إيه، الكراهية.

- بالظبط يا فندم، ما أعتقدش إن دي شهادة نقدر نعتمد عليها أو نعتبرها موجودة من الأساس، برغم إن الشاهد كان فاكر ملابس المشتبه فيه كويس جدًّا ولما راجعنا الكاميرات اكتشفنا إنه مش بيكذب في الجزئية دي، لكنها نقطة ممكن ما يكونش ليها أي دلالة، ممكن يكون الشاهد مركز مع المشتبه فيه زيادة عن اللزوم بسبب اللي حصل بينهم ودة اللي خلاه يفضل فاكر شكله ولبسه، واضح إنه عمل له عقدة نفسية لما ضربه قدام الناس، والعقدة دي خلته ينتهز الفرصة علشان ينتقم منه.

هز العميد محسن كتفيه بأسف وقال:

- الحقد اللي جواه ما دمرش حد غيره، دي شهادة زور مكتملة الأركان ولازم يتحاسب عليها.

أومأ الدكتور عمرو برأسه موافقًا، وظل صامتًا لبرهة قبل أن يتابع:

- الشاهد التالت (سامح سالم) كان بالنسبالي حالة سهلة جدا، لأني كنت متأكد وأنا بستجوبه إن معندوش ذرة تردد في أقواله، كان باين جدًّا من طريقة كلامه الهادية ووضعية جسمه المرتاحة إنه مش بيكذب، شهادة ما قدرتش ألاقي فيها ثغرة واحدة لدرجة إني حسيت إن القضية خلاص اتحلت، لكن للأسف الموضوع مطلعش بالسهولة دي أبدًا.

ظهرت خيبة الأمل على وجه العميد محسن، تجاهل الدكتور عمرو ذلك ثم أكمل سريعا:

- الشاهد كان متأكد إن المشتبه فيه التالت (أحمد الدالي) هو الجاني، وبناءً على نسبة التأكد دي أخدت منه معلومات عن شكل الجاني والقتيلة يوم الحادثة، علشان يبقى عندي دليل مادي ملموس ممكن أستند إليه، ويدعم كمان من أقوال الشاهد، الشاهد قال إن الجاني كان لابس قميص بيج وبنطلون بني، وإن القتيلة كانت لابسة بلوزة رمادي وجيبة سودا، ولما راجعت الكاميرات يوم الحادثة اتضح إن الكلام دة غلط جدا وملوش أي أساس من الصحة.

قطب العميد محسن حاجبيه باهتمام وقال:

- بس أنت لسه بتقول إنه مش بيكذب، وإنك واثق تمامًا من إن أقواله سليمة؟

- ده صحيح يا فندم ودة اللي أربكني جدا، مش معقول يكون شخص عادي زي الشاهد عنده القدرة الرهيبة دي على إخفاء انفعالاته لدرجة إنه يقدر يخدع حد متخصص، في النهاية الشهادة بالنسبالي تعتبر باطلة لكن كان فيه جزء مني مش فاهم إيه اللي بيحصل، لحد ما اكتشفت حاجة غريبة جدًّا وأنا براجع كاميرات المراقبة.

سكت للحظة لكي يجذب انتباه العميد محسن وتركيزه إلى أقصى درجة ثم أردف:

- حضرتك عارف إني طلبت تسجيلات الكاميرات لمدة أسبوع قبل الحادثة، اللقطات اللي الكاميرات سجلتها قبل الحادثة بيوم واحد أثبتت إن المشتبه فيه والقتيلة كانوا لابسين نفس اللبس اللى الشاهد أدلى بأوصافه، نفس الألوان بالظبط بدون أي تغيير، ودة بيثبت إن الشاهد ما كانش بيكدب في أقواله وإنه شاف المشتبه فيه بيدخل الحمام ورا القتيله فعلا، لكن للأسف دة حصل في اليوم السابق للحادثة مش في يوم الحادثة نفسه، دي ظاهرة علمية معروفة اسمها (التداخل في استدعاء الأحداث من الذاكرة)، الشاهد هنا شاف حدث معين قبل أو بعد التوقيت اللي حصلت فيه الجريمة، ولما تم استجوابه استرجع المشاهد اللي شافها واللي اتخزنت في عقله الباطن، لكن في الحقيقة إن المشاهد دي ملهاش أي علاقة بواقعة الجريمة نفسها، في بعض الأحيان بيكون الشاهد مرتبك وخايف من المساءلة، ودة اللي بيخلي عقله يفتكر أحداث قريبة في الزمان والمكان من الجريمة الفعلية ويستخدم الأحداث دي في شهادته، دي ألاعيب اللاوعي الخفية، لحسن الحظ إن فيه محلل نفسي في

الموضوع وإلا كان الشاهد دة بقى متهم بشهادة الزور.

رمقه العميد محسن بنظرة مليئة بالضيق والحنق، من الواضح أنه لا يرغب بسماع كل تلك التبريرات ويريد أن يعرف النتيجة النهائية مباشرة، لكنه يحاول ألا يُظهر ذلك، يشيح بوجهه ويشعل سيجارته بشيء من العصبية ويزداد احمرار عينيه.

- أكمَّل يا فندم؟؟

ظل العميد محسن صامتا لفترة ثم أومأ برأسه أخيرًا.

- الشاهد الرابع (طاهر عبد العليم) كانت شهادته من أغرب الشهادات اللي شفتها بصراحة، وأخدت مني وقت كبير جدا عشان أقدر أحللها بطريقة ترضيني وأكون متطمن لها، عملية الاستجواب بدأت بارتباك ملحوظ من الشاهد مع شيء من العدوانية، ولما حاولت أتكلم معاه وأفهم سبب عصبيته اتضح إنه سمع كلام معين من والدته وصَّله للحالة دي، الست فهمته إن سبب استدعائه للشهادة مرة تانية إن الشرطة مشتبهة فيه وعايزة تلفق القضيه له، وهوه صدَّق الكلام فورًا واتأثر بيه جدًّا من غير حتى ما يحاول يفكر في مدى صحته.

ابتسم العميد محسن ابتسامة مريرةً ثم قال:

- للأسف فيه ناس كتير بتفكر بالشكل دة.

- المشكله مش في طريقة تفكيره يا فندم، مش دي النقطة اللي أقصد أوضحها، أنا ممكن أقبل إنه يفكر بالأسلوب دة لو هي دي معتقداته الشخصية، لكن تأثره المبالغ فيه بكلام الغير خلّى تفكيري يروح في حتة تانية ..

نظرة الفضول تظهر في عين العميد محسن تُخفي وراءها قدرًا من الضجر والاستعجال كالعادة، يتابع الدكتور عمرو:

- الشاهد مكانش فاكر مين بالظبط اللي دخل الحمام ورا البنت، ما افتكرش غير لما سمع الظابط اللي بيستجوبه بالصدفة وهو بيقول إنه شاكك في (هاني الشربيني) وحاسس مجرد إحساس إنه شافه قبل كده، ساعتها نزل عليه الوحي وأكد على كلام الظابط فورًا بالرغم من إنه كان متردد، فجأة بقى متأكد من أقواله مع إنه كان شاكك في أكتر من واحد من المشتبه فيهم، ومع ذلك فهو مش فاكر إطلاقا شكل ملابس الجاني أو هيئته، ودة الشيء المتناقض جدا في الشهادة بغض النظر عن تغيير الشاهد لأقواله بدون مبرر.

- أنت عايز توصل لإيه بالظبط يا دكتور؟؟

- عايز أقول إن دي شخصية عندها قابلية عالية جدا للإيحاء، شخصية بتتأثر بكلام الناس وآرائهم بشكل مش طبيعي، ودة لأنها في الأساس شخصية ضعيفة هشة معندهاش أي ثقة في النفس، ولا عندها أي قدرة على اتخاذ قرار أو تكوين رأي شخصي بدون الرجوع للغير، عشان كدة هي بتميل إنها تردد أي كلام بتسمعه وبتعتبره رأيها الخاص، رأي الناس بالنسبة للشخصية دي هو طوق النجاة اللي بيسعفها في أي موقف، ومن الصفات الأساسية في الشخصية دي هي سرعة التصديق، بتصدق أي حاجة بحسن نية مبالغ فيه، ودة لأن رأي الناس بالنسبالها يعتبر شيء مقدس وله أهمية كبيرة، حضرتك ممكن تتخيل إني قلت للشاهد إن رئيس الجمهورية هو اللي مكلفني بالتحقيق، والنتيجة إنه ما شكش للحظة واحدة ف كلامي، بالعكس صدقه فورا واتمنالي التوفيق كمان.

ظهر التركيز الممتزج بالتعجب على ملامح العميد محسن، وبدا واضحًا أن طريقة سرد الدكتور عمرو للأحداث قد أضفت جوًّا من التشويق وأزالت ما كان يشعر به من نفاد صبر..

- أنت متأكد من تشخيصك يا دكتور؟ مش عارف ليه حاسس إنك ممكن تكون اتسرعت شوية المرادي، يعني أنت شايف إن الأدلة اللي وصلتك للتفسير دة تعتبر كافية؟

أومأ الدكتور عمرو برأسه إيجابا بثقة ثم أردف:

- تمامًا يا فندم، فية حاجة كمان حصلت أكدت لي إني ماشي في الطريق الصح، الشاهد كان بيرتجف من البرد، ودة لأن الجو كان بارد فعلا، لكن لما أنا قلت متعمد طبعا إن جو الأوضة أدفى بكتير من برا، بعد شوية راحت الرعشة اللي كانت في رجله، ودة لأن عقله الباطن أخد كلامي كشيء مُسَلّم بيه وادَّى الأمر لجسمه إنه يتصرف على الأساس دة، موضوع تغيير الشعور بالبرد والحر دة لوحده كفيل إني أثق في تشخيصي بنسبة 100٪، مع مراعاة إن الشاهد كان رافض يلبس بنطلون جينز في البرد دة لأنه سمع من واحد صاحبه إنه بيسبب عقم، يعني حجة مش ممكن يصدقها طفل صغير لكنه صدقها وطبقها كمان، أعتقد يا فندم إن شهادة شخص زي دة مستحيل نقدر ناخد بيها واحنا ضميرنا مستريح، لأنها صادرة من إنسان مهزوز معندوش ذرة ثقة في نفسه أو في أقواله.

ظهرت علامات الإنهاك والتشتت على ملامح العميد محسن بعد كل تلك التفسيرات العلمية، رمقه الدكتور عمرو بنظرة مشفقة.

- تحب حضرتك نرتاح شوية يا فندم وبعدين نكمل؟؟

كاد العميد محسن أن يرد بالإيجاب لولا ما بداخله من فضول ورغبة مُلحّة في الوصول للحل، فهز رأسه نفيًا ورسم على شفتيه ابتسامة باهتة ثم أشار للدكتور عمرو أن يُكمل حديثه.

- الشاهد الخامس (مصطفى مؤمن)، الشاهد دة اتهم (مجدي الهندي) آخر المشتبهين فيهم، في بداية الاستجواب تبين إنه مش متأكد من شهادته بنسبة 100٪، يعني هو ما كانش واثق إن المشتبه فيه هو أول واحد راح ناحية الحمام بعد القتيلة، برغم كدة كان متأكد جدا من إن المشتبه فيه دة هو الجاني، لكن أسبابه كانت مش منطقية أبدا..

استنشق نفسًا عميقًا ثم تابع:

- الشاهد شاف المشتبه فيه قبل كدة ذا مرة وهو بيبص لجسم البنت بطريقة فجّة، بصة مليانة شهوة زي ما بيقول، مع ملاحظة إنهم بيبقوا قاعدين وسط زمايلهم، بالإضافة إلى أن الشاهد شافه وهو بيحاول يلمس جسمها من غير ما تاخد بالها، ودة معناه إن المشتبه فيه معندوش أي قدرة على السيطرة على نفسه..

قاطعه العميد محسن:

- ثانية واحدة قبل ما تكمل، تحرياتنا أثبتت إن مفيش أي حد من المشتبه فيهم اتعرَّض للقتيلة قبل كدة أو حاول يضايقها، ودة معناه بديهيًّا إن محدش اتحرش بيها أو حاول حتى يعمل كدة، وبعدين بالعقل يعني، محدش هيعمل

كدة مع زميلته لأنه يبقى بيجيب لنفسه مصيبة، تبقى إيه أهمية إنه يبصلها أو ما يبصلهاش؟ كل الرجالة بتبص على فكرة..

توقف عن الحديث فجأة وارتسمت على وجهه ابتسامة خبيثة، ثم أمال رأسه للأمام وأردف:

- بالمناسبة يا دكتور، أنت مش بتبص برضو؟؟

لم يبتسم الدكتور عمرو بل حوّل بصره للأسفل بشيء من الحرج ولم يرد، ثم بدا وكأنه قد تذكر شيئا ما فأعاد النظر نحو العميد محسن وقال بفضول:

- معلش يا فندم أنا فيه جزئية معينة كنت عايز أسأل حضرتك عنها.

- اتفضل.

- حضرتك قلت قبل كدة إنكم عملتوا تحريات مفصلة عن المشتبه فيهم وعلاقتهم بالقتيلة، إزاي عملتوا التحريات دي في ظل سرية الموضوع؟ وعملتوها مع مين؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي العميد محسن للحظة ثم رد:

- واضح إنك مش عارف طبيعة شغلنا كويس يا دكتور، احنا عندنا عيون في كل حتة، أي مؤسسة أو مصلحة حكومية أو أي جهة عمل سواء خاصة أو عامة لازم يكون فيها حد تابع لينا بشكل مباشر، تقدر تقول عليه مندوب مش أكتر، يعني واحد عارف كل كبيرة وصغيرة بتحصل في المكان وبيدينا فكرة عن الأخبار أول بأول، طبعا مش كل الأخبار مهمة، احنا بنركز أكتر على الحاجات اللي بنحس إنها ممكن تمسّ الأمن العام.

ظهرت علامات المفاجأة على وجه الدكتور عمرو، معلومة جديدة تمامًا بالنسبة له، بذل مجهودًا لكي يسيطر على انفعالاته ثم أردف:

- ودة إيه علاقته بالجريمة اللي حصلت؟

- احنا عملنا التحريات مع مندوبنا أولا، هو موظف كبير في البنك وعارف كل الموظفين كويس، والنتيجة كانت سلبية لأقصى درجة، مفيش أي خلافات حصلت بين المشتبه فيهم وبين القتيلة إطلاقا، بالعكس كانت علاقتهم مثالية لحد يوم الحادثة، احنا بصراحة ما اكتفيناش بأقواله وعملنا تحريات عادية مع باقي الموظفين، طبعا أنت عارف إن الميكروباص عمل حادثة بعد الريمة علطول ودي كانت حجتنا، سألنا زمايل المشتبه فيهم عن طبيعة علاقتهم ببعض وعن احتمالية وجود شبهة جنائية، والأقوال كلها أكدت إن العلاقة كانت علاقة زمالة طبيعية جدًّا ممكن توصل لمستوى صداقة كمان.

رمقه الدكتور عمرو بنظرة بها مزيج من الشك والتردد، ولكن العميد محسن أشار له بحزم أن يكمل تحليله، فاستعاد سريعا ذلك الطابع العلمي الذي يميز طريقته في الحديث ثم تابع وهو يحاول تجميع أفكاره:

- في البداية بدأت أقوال الشاهد تلفت انتباهي، لأني حسيت إنه متأكد وواثق جدا من كلامه، بالإضافة إلى أن أقواله ممكن توحي إن فيه دافع معين للجريمة، لحد ما الاستجواب راح فجأة في حتة تانية خالص، حتة ما كنتش متوقعها..

ظهرت أقصى درجات التركيز على ملامح العميد محسن، فهذا الشاهد هو الأمل الأخير..

- فجأة اتضح إن أقوال الشاهد مبنية كلها على اعتقاد خاطئ منه بإن المشتبه فيه اغتصب البنت، وإننا مش عايزين نعلن الخبر دة عشان ما نضرش بسمعتها، المشكلة مش في اعتقاده، المشكلة إنه متأثر بيه لدرجة إنه بيبني تخيلات بناءً عليه ويصدقها، النوع دة من الأشخاص بيبقى في أغلب الأحيان شخص متصلب جدًّا برأيه، شخص شايف إنه أذكى من غيره وإن اعتقاده هو الصواب المطلق، وللأسف شهادة زي دي لا يمكن تكون مقبولة بأي شكل من الأشكال، لأنها نابعة من فكرة موجودة مسبقا في عقل الشاهد، وساهمت بشكل غير مباشر في بلورة شهادته، الشهادة لازم يكون مصدرها السليم أحداث أو وقائع مؤكدة أقدر من خلالها أوجه الاتهام لشخص بعينه، لكني ما أقدرش أتّهم حد بناءً على اعتقادات الشهود أو آرائهم فيه، خصوصا إن مفيش دليل مادي واحد يؤيد الاتهام دة.

تصلّبت ملامح العميد محسن وتجهمت نظراته، فحديث الدكتور عمرو لم يكن له سوى معنى وحيد، أن إعادة الاستجواب لم تُسفر عن أيّة نتيجة وأن الجاني مازال مجهولًا.

لحظات من الصمت تمر بطيئة، الدكتور عمرو يراوده شيء من الحرج بسبب ما تسبب فيه من خيبة أمل للعميد محسن، والأخير يبدو مثقلًا بالهموم بسبب ما سوف يتعرض له من مساءلة وتوبيخ من رؤسائه.

يبادر العميد محسن بالحديث أخيرًا:

- أنا شاكر لحضرتك جدا يا دكتور، أنت عملت اللي عليك وأدّيت المهمة المطلوبة منك على أكمل وجه، وبتأسف على اللخبطة اللي عملتهالك الفترة اللي فاتت، يا ريت تبلغ شكري وامتناني لفريقك كمان.

كلمات تبدو وداعية إلى حد ما، ربما كان الدكتور عمرو يتمنى في لحظة من اللحظات أن يصل لتلك المرحلة، فلماذا إذن لا يشعر بأيّة سعادة ويراوده هذا الإحساس بالضيق والاختناق، أهي مرارة الفشل؟ أم إنه كان ينتظر نتيجة مرضية أكثر؟ الخلاصة، أنه لم يقتنع بعد أن مهمته قد انتهت عند ذلك الحد.

بدا واضحًا أن العميد محسن يريد إنهاء الحديث، وهمَّ بالوقوف لولا..

- لو تسمح لي يا فندم..

قالها الدكتور عمرو فجأة فرمقه العميد محسن بنظرة استغراب، فتابع:

- لو تسمح لي يا فندم بفرصة تانية، أنا لسة عايز أكمل في التحقيق.

ظهر التساؤل واضحًا على ملامح العميد محسن، فأكمل الدكتور عمرو حديثه:

- أستأذن حضرتك، أنا هاجتمع بفريقي بكرة عشان ندرس الجريمة تاني ونحاول نوصل لأي ثغرة فيها.

ظهرت نظرة يائسة في عين العميد محسن، وبدا أنه غير مقتنعٍ تمامًا بتلك المبادرة.

- دكتور عمرو أنا متشكر مرة تانية لمساعدتك، لكن أنا مش حاسس إن الطريق دة هيوصلنا لأي حاجة.

ظهر الحزم والتصميم هذه المرة على ملامح الدكتور عمرو الذي قال:

- أنا عارف يا فندم إن حضرتك مُحبط، بس صدقني ممكن شعورك دة يتغير لو سمحت لنا بفرصة تانية، طبعا تحقيقات المباحث في الجريمة هتفضل ماشية زي ما هي، ده شغلكم واحنا مش هنتدخل فيه، وشغلنا على كل حال مش هيضر لكن ممكن يفيد، احنا بندور على إبرة في كوم قش، وفي الحالات اللي زي دي بيقى التغيير في أسلوب البحث مطلوب، أقصد إن غرابة الجريمة ممكن تخلينا نحقق فيها بطرق مش مألوفة وغير تقليدية.

بدا الكلام منطقيًّا ومنظمًا إلى حد ما، وظهرت علامات القبول تدريجيًّا على وجه العميد محسن، قبول على مضض إلى حد ما.

- طيب، أنا موافق بشرط السرعة والسرية، هاستنى اقتراحات جديدة في أقرب وقت.

لاحت ابتسامة الرضا على وجه الدكتور عمرو. فقال في حماسة وأمل:

- إن شاء الله يا فندم اللي جاي أفضل، أنا متفائل.

كانت ياسمين منهمكة إلى أقصى حد في قراءة أحد الأبحاث المتعلقة برسالة الماجستير الخاصة بها، لدرجة أنها لم تسمع خطوات والدتها ولم تشعر بوجودها إلا بعدما وضعت الأخيرة تلك الصينية المحمَّلة بالساندوتشات أمامها على المكتب، فرفعت وجهها نحوها ورمقتها بنظرة امتنان ممتزج بالإشفاق، ردَّتها الأم بابتسامة عذبة ودودة.

- شكرًا يا ماما، كنت بدأت أجوع فعلا.
- بالهنا والشفا يا حبيبتي.

كادت ياسمين أن تبدأ تناول طعامها، لولا أنها لمحت تلك النظرة المترددة في عين والدتها، بدا واضحا أنها ترغب في قول شيء ما، ولكنها تخشى من رد فعل ابنتها، بشيء من اللامبالاة أردفت ياسمين:

- خير يا ماما، فيه حاجة؟؟

جلست الأم قبالتها وهي تتحاشى نظراتها المتسائلة، التردد لا يزال واضحًا في ملامحها، حتى بدا أنها قد حسمت أمرها فبدأت الحديث:

- كنت عايزة أسالك سؤال كدة.
- طبعا يا ماما اسألي.
- أنتِ بتثقي فيا يا ياسمين؟

اتسعت عينا ياسمين بدهشة تتناسب مع غرابة السؤال، ثم سرعان ما ارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة:

- إيه الكلام دة؟ انتِ أكيد بتهزري صح؟

ارتبكت الأم قليلا ثم قالت:

- مش قصدي كدة بالظبط، أقصد أنتِ واثقة إني عايزة مصلحتك؟

من طريقة حديث الأم، وترددها وارتباكها، استطاعت ياسمين بفطنتها أن تميز بوضوح ما ترمي إليه، إنه ذلك العريس الأخير بلا شك، ذلك الشاب الذي جلست معه في مقابلة تعارف منذ قرابة الأسبوع ورفضته بدون سبب محدد، الأمر الذي استنكرته العائلة بأكملها وأثار سخطهم واستياءهم، مما اضطرهم في النهاية إلى أن يطلبوا من العريس مدة كافية للتفكير ولم يبلغوه مباشرة بالرفض، خاصة مع اقتناعهم التام بأنه عريس (لُقطة) كما يقال ومن الممكن ألا تأتيهم الظروف مرة أخرى بشخص له مواصفاته نفسها.

- هنرجع للموضوع دة تاني؟

- تاني وتالت ورابع، يا بنتي أنا ممكن أقبل رفضك لأي حد، بس لازم يكون فيه مبرر، دة تالت عريس ترفضيه يا ياسمين، أنا وباباكِ مش عايزين نضغط عليكِ، بس أنتِ مطلوب منك تقنعينا بأسباب الرفض.

- أقنعك بإيه يا ماما؟؟

ردت ياسمين بشيء من العصبية ثم أردفت:

- دة موضوع يخصني أنا وبس.

- لا ما يخصكيش أنتِ وبس، احنا من حقنا نطمن عليكِ ونفرح بيكِ.

كتمت ياسمين غيظها مراعاةً لمشاعر والدتها وآثرت الصمت، سكتت الأم بدورها للحظات ثم اقتربت من ابنتها، ثم قالت بلهجة حذرة:

- أنتِ فيه حد في حياتك؟

رفعت ياسمين نظرها إليها بحدة ولم ترد، فتغيرت ملامح الأم سريعا وظهرت في عينها نظرة اعتذار.

- متزعليش مني يا حبيبتي معلش.

قالتها الأم وأطرقت برأسها بشيء من الحيرة.

أخذت ياسمين تتأمل والدتها بإشفاق، هي تفهم جيدا أن أمها لم تستوعب بعد طريقة تفكيرها فيما يتعلق باختيار شريك الحياة، هي تريدها أن تتزوج زواجًا تقليديًّا فحسب، الأمر الذي بغضته ياسمين طوال حياتها ولم تتقبله أبدًا، هي ببساطة تحلم بالحب منذ نعومة أظفارها، تحلم باللحظة التي يراودها فيها ذلك الشعور ويجعلها مسلوبة الإرادة، ذلك الشعور الذي رفضت من أجله أن ترتبط بأي شخص على الرغم مما تعرضت له من محاولات التودد المستمرة، هي لا تريد شخصًا ينظر إلى الزواج تلك النظرة الشمولية المقيتة، لا تريد من يعتبرها كأيّة سلعة جيدة المواصفات، فتاة جميلة ومن عائلة محترمة ولها وظيفة مرموقة، إذن فهي الاختيار المناسب، هي تحلم بشيء مجنون لا يخضع لحسابات العقل والمنطق، فالارتباط بشخص ما مدى الحياة هو أمر متعلق أولًا وأخيرًا بالعاطفة بالنسبة لها، ولن يُرضي طموحها أبدا سوى ذلك الحب الذي انتظرته طويلا.

وكأن والدتها تسمع ما يدور بخلدها، فقالت فجأة بصوت خفيض:

- ولو اللي أنتِ بتستنيه ده مجاش؟

ظلت ياسمين صامتة ولم ترد، فأكملت الأم بلهجة عقلانية:

- كل بنت بتحلم تلاقي حاجات معينة في الشخص اللي هترتبط بيه، لكن في أرض الواقع يا ياسمين ممكن ميكونش عندك فرصة الاختيار، أنتِ بنت واحنا في مجتمع شرقي له عاداته وتقاليده، والبنت فيه مجبرة إنها تستنى لحد ما يتقدم لها الشخص المناسب، ومينفعش تبقي متأكدة أوي إنك هتلاقي الشخص اللي بتتمنيه وتفضلي مستنياه لأن ببساطة ممكن دة ميحصلش، ساعتها بيبقى مفيش قدامك غير التنازل والرضا بأي حاجة والسلام، وللأسف كل ما الوقت بيعدي بتقل فرصتك إنك تلاقي حد يناسبك، أنا خايفة عليكِ من الندم يا حبيبتي.

شعرت ياسمين بانقباضة في صدرها بعد تلك الكلمات وبدا عليها الوجوم، فشعرت الأم أن عليها أن تطرق على الحديد وهو ساخن، فتابعت:

- كل اللي بطلبه منك إنك تديله فرصة وتدي نفسك فرصة إنك تعرفيه أكتر، صدقيني الحب بييجي بعد المعرفة مش قبلها، وعمرك ما هتحسي بأي مشاعر ناحية أي حد من غير ما تقربي منه، وفي كل الأحوال خليكِ متطمنة لأن لا أنا ولا باباكِ هنجبرك على حاجة، جربي، في كل الأحوال مش هتخسري حاجة، بالعكس التجربة هتعلمك حاجات كتير حتى لو ما كملتش.

تغيرت ملامح ياسمين من الرفض المتزمِّت إلى الشرود والتفكير، راقبت الأم بنظرات متلهفة ذلك التغيير وشعرت أن الأمل في القبول مازال قائمًا، فقررت -بذكاء كبير- أن تلعب على الوتر الحساس لدى أيّة فتاة..

- بذمتك أنتِ مش نفسك تفرحي؟ خطوبة وشبكة وحفلة كبيرة وفستان، وتشوفي كل أصحابك وقرايبك حواليكِ وتشوفي اللي فرحان منهم واللي متغاظ، مش نفسك تلبسي الدبلة بقى؟ وتعملي البتاع دة اللي بيعملوه اليومين دول.

استيقظت ياسمين من ترددها ونظرت نحو والدتها بتساؤل، فظهرت علامات النسيان والحيرة على وجه الأم.

- بتاع إيه يا ماما؟

- التصوير اللي بيتصوروه ده، بيروحوا في أماكن غريبة كدة ويتصوروا، زي اللي عملته مها بنت خالتك يوم فرحها.

ابتسمت ياسمين رغما عنها..

- آآه، فوتوسيشن يا ماما، اسمه فوتوسيشن.

- أيووة، هوه ده.

لم تفارق الابتسامة وجه ياسمين وهي تتخيل تلك المظاهر المبهجة، وبدا واضحًا أن والدتها قد استطاعت أن تؤثر عليها فعلًا، نظرة الأم تجمع بين الترقب والرجاء.

- أكلّم مامته؟؟

صمتت ياسمين للحظات، ثم أومات برأسها أخيرًا بخجل، تهللت أسارير الأم وأسرعت تحتضن ابنتها بقوة..

– ألف مبروك يا حبيبتي، ألف مبروك، والله هتبقي عسل في الفوتو سيشر.

اتسعت ابتسامة العروس أكثر فأكثر.

حاول أحمد جاهدًا أن يبدو طبيعيًّا، وألا يظهر على ملامحه أي قدر من الانفعال الذي يدور بداخله، خوفا من أن يلاحظ أحد زملائه الجالسين معه بحجرة المعيدين غرابة أطواره، تخونه عيناه وتتجه رغما عنه نحو مكتب ياسمين التي تأخرت كثيرًا اليوم على عكس عادتها، ثم يشيح ببصره سريعا ويراجع مع نفسه مجددًا تلك الأسئلة التي عزم أن يطرحها عليها حول المهمة التي تجمعهما، وبعض النواحي العلمية الأخرى التي تخص تحليل نفسية الشهود والمشتبه فيهم، أسئلةٌ بَذَلَ جهدًا كبيرًا في تحضيرها بصورة مناسبة لِكَيْلا يبدو أبلهَ، ولكيلا تكتشف هي أن كل ما يرمي إليه هو فتح حوار معها.

الدقائق تمر بطيئة، هل من الممكن ألا تأتي اليوم بعد كل تلك التحضيرات، سيكون أمرًا مخيبًا للآمال بلا شك.

لمحها تدخل من باب الحجرة أخيرًا، بطلَّتها الساحرة المميزة وابتسامتها الهادئة وأناقتها، ألقت التحية على الجالسين فردَّوا جميعًا إلا هو، تتعلق عيناه بها ويخفق قلبه سريعا وكأنه يركض، فكرة المبادرة بالحديث معها تبدو صعبة بل مستحيلة، على الرغم من أنها كانت مقبولة ومنطقية جدا على الورق، يراوده شعور بالسخط على جُبْنه وخجله، ثم يستجمع قواه أخيرًا ويقرر بشجاعة أن يذهب إليها، ماذا سيحدث في أسوأ الظروف؟ هي لن تحرجه مطلقًا، هو متأكد من ذلك، وبإمكانه الانسحاب في أي وقت إذا خانته ذاكرته ولم يتذكر الأسئلة.

يخطو تجاهها بخطوات بطيئة داعيًا الله ألا يتلعثم، يلاحظ أن زميلاتها يجتمعن حولها بشكل غريب، يبدو أنهن يهنِّئْنها على شيء ما، يتوافد الزملاء نحوها شيئا فشيئا لدرجة أنه لم يعُد يراها، يزداد الزحام بشكل مريب وتتلاشى بالطبع أيّة رغبة لديه بالحديث معها، يستوقف أحد زملائه ليسأله بفضول عن سبب ذلك التجمهر، فيرد عليه بلامبالاة:

- بارك لها يا سيدي، خطوبتها الجمعة الجاية.

*****

الصدمة؟ ربما لا، ليس هو الوصف المناسب لما يشعر به الآن، هو لا يشعر من الأساس، تعطَّلت قدرته مؤقتا على الإحساس بأيّة مشاعر إيجابية أو سلبية، أكثر ما يؤلمه هو ذلك المشهد الذي مازال عالقا بذاكرته، ذلك المشهد الذي تبتسم فيه ياسمين تلك الابتسامة العريضة جدًّا وهي تتلقى التهاني، والذي أحس حين رآها أنها لا تشعر بوجوده على الإطلاق، كل مشاعره وعواطفه وأحلامه هي لا تدري عنها شيئًا، تعيش حياتها كأيّة فتاة عادية وترسم لنفسها طريقًا طبيعيًّا تسلكه خطوة بخطوة، النجاح في الدراسة ثم العمل ثم الارتباط، على الجانب الآخر، ما الذي قدمه هو لكي يشاركها هذا الطريق؟

السؤال المرير يتردد برأسه ويكاد يفقده صوابه، لماذا لم يُبِح لها بمشاعره؟ لماذا ظل صامتًا حتى أتى من حملها عنه بعيدًا، الأمر بالنسبة له لم يكن خاضعًا لأي تفكير أو منطق، فهي المرة الأولى في حياته التي تراوده فيها تلك

الأحاسيس، حتى في أيام المراهقة لم يشعر أبدًا بمثل ذلك الشعور العاصف بالانجذاب تجاه أيٍّ من زميلاته أو أقاربه، ربما سببت له تلك الحالة التي يعيشها كلما رآها نوعًا من الاكتفاء، ذلك الارتياح الذي يروي شوقه ولهفته كلما وقع بصره عليها، وتلك السعادة التي تملأ قلبه كلما تأمل ملامحها خلسةً، وتلك الابتسامة البلهاء التي ترتسم على وجهه كلما رآها تضحك، هل اكتفى بحالة النشوة التي تسببت له فيها وانساق وراء خيالاته؟ من كان يدرك أن تلك المرحلة لن تدوم طويلًا وستنتهي فجأة بتلك النهاية الكابوسية؟!

إلامَ ستقوده أحزانه؟ إلى يأس واكتئاب وانعزال؟ أستفتر آلامه وأوجاعه بمرور الوقت أم ستتضاعف تشوهات نفسه؟ ابتسامتها الواسعة تطارده كلما حاول النسيان لتذكره بمدى ضعفه وجبنه وضآلته، الحلم يتهاوى تاركا خلفه شظايا من التشتت والتمزق، كيف سينظر إليها الآن حين تلتقي عيناها بعينه؟ وكيف سيبتسم في وجهها مجاملًا على الرغم من كل ما بداخله من مرارة؟ وكيف سيكون رد فعله حين يلمح ذلك الخاتم الخانق في بنصرها الأيمن؟ ليس هناك مفرٌّ من الحصول على إجازة طويلة يلملم بها شتاته، ويحاول أن يحصل فيها على إجابات لأسئلته التي لا تنتهي.

شعر الدكتور عمرو بيد الدكتور حسين الجالس بجانبه وهي تربت على كتفه، فاستفاق من شروده ونظر نحوه باستغراب، فتمتم الدكتور حسين بشيء من الحرج:

- دورك يا دكتور..

ينتبه الدكتور عمرو ويتذكر أنه يناقش رسالة ماجستير لأحد المعيدين وعليه أن يبادر بإلقاء الأسئلة، المشكلة أنه لم يستمع لحرف واحد مما قيل على مدار الساعة الماضية، فقد كان غارقا في التفكير في أبعاد القضية التي يساعد في حلها والتي تستحوذ على كل ذرة من تفكيره واهتمامه، هل كان متسرعًا حينما طلب من العميد محسن أن يمنحه فرصة أخرى؟ يراوده شعور بسيط بالتورط خاصة مع كونه لم يستقر حتى الآن على خطة للعمل.

يد الدكتور حسين توقظه من أفكاره المضطربة مرة أخرى، يلاحظ أن كل العيون تتعلق به بترقب، يتنحنح للحظة ثم يُلقي بأول سؤال تبادر إلى ذهنه وينظر تجاه المعيد صاحب الرسالة بانتظار الرد، يبادله المعيد نظرات الحيرة ويظل صامتًا، وتظهر النظرات الحائرة نفسها في عيون الحاضرين يصاحبها بعض الهمهمات وقليل من ابتسامات التهكم، يشعر أخيرًا بالدكتور حسين يقترب من أذنه ويهمس بصوت خفيض:

- دة نفس السؤال اللي أنا سألته من دقيقة، أنت مأخدتش بالك ولا إيه؟

يشعر بصعوبة الموقف الذي وضع نفسه فيه ويراوده شعور عارم بالحرج، فيقرر مغادرة القاعة سريعا للهروب من ذلك المأزق، يعتذر للدكتور حسين باقتضاب عن استكمال المناقشة ويخرج من القاعة في هدوء.

عليه أن يلتقي الآن بأعضاء فريقه بأقصى سرعة مهما كانت الظروف، كان قد علم اليوم أن حفل خطوبة ياسمين يوم الجمعة القادم، وأن أحمد قد تقدم بطلب للحصول على إجازة لمدة أسبوعين، لن تجدي تلك الأعذار نفعًا فالأمور تزداد تعقيدًا، الوقت يمضي وعليه أن يحصل على نتيجة ما مهما كلّفه ذلك، فهو قد قَبِلَ التحدي منذ البداية وعليه إذن أن يتحمل كل التبعات.

*****

تبادل الدكتور عمرو نظرات الحيرة والضيق مع ياسمين الجالسة أمامه على الطاولة نفسها في تلك الكافتريا النائية، والتي اختارها خاصة من أجل المحافظة على سرية المهمة وضمان عدم لفت الأنظار، ينظر كلٌّ منهما إلى ساعته في الوقت نفسه، ثم يعودا ليشيحا بوجهيهما بضجر، تبادر ياسمين بالحديث:

- غريبة أوي بصراحة، أحمد بالذات معروف إنه ملتزم بمواعيده، مش عارفة إيه اللي حصل المرادي.

ظل الدكتور عمرو صامتًا للحظة ولم يرد، وحاول أن يحافظ على تماسكه وهدوء أعصابه لأقصى حد، خاصة مع معرفته القوية بأحمد وتأكده التام من عدم تعمده التأخير، ربما كان هناك ظرف طارئ.

خطر بباله أن يخفف حدّة التوتر قليلًا، فنظر نحو ياسمين وابتسم بعذوبة..

- نسيت أبارك لك على الخطوبة.

تصاعد الدم فجأة إلى وجه ياسمين وخفضت بصرها للأسفل خجلًا، ثم ابتسمت ابتسامة قصيرة وقالت:

- عقبال بنات حضرتك.

بدا الرد بالنسبة له غريبًا إلى حدٍّ ما، خاصة مع كونه لم يضع ذلك الأمر في حسبانه من قبل، على الرغم من أن كبرى بناته قد تخرجت العام الماضي وصار الوقت مناسبا جدًّا للارتباط، ربما لأنه يعتبر أن إثبات الذَّات هو الخطوة الأهم بالنسبة لهم في هذه المرحلة.

- لا، لسة بدري شوية، روان لسة قدامها الماستر وبعدين الدكتوراة، يعني المشوار لسة فـ أوله.

- ربنا يوفقها يا رب.

عادا للصمت مرة أخرى، ولكن لم يطل صمتهما كثيرا هذه المرة، فقد سمعا ذلك الصوت المميز يأتي من خلفهما:

- مساء الخير يا جماعة.

- مساء النور.

رد الدكتور عمرو وياسمين التحية في آنٍ واحد، وتعلقت أبصارهما بوجه أحمد الذي بدا مختلفا للغاية، ذلك النحول المفاجئ وتلك الهالات السوداء

حول عينيه، لحيته الطويلة وذلك التجهم الذي ملأ ملامحه، كلها أمور غير طبيعية تدل بوضوح على أنه يعاني من مشكلة ما.

ظلت ياسمين صامتة بوجوم، وفكر الدكتور عمرو أن يفتح الحديث مع أحمد بصورة شخصية ويسأله عن أحواله، ولكنه تراجع عن فكرته وقرر أن يبادر بالتحدث مباشرة عن ملابسات القضية نظرًا لضيق الوقت، فتنحنح قليلًا قبل أن يردف:

- بصوا يا جماعة، مبدأيًا أنا بشكركم على المجهود اللي بذلتوه في القضية، أنا عارف إنكم عملتوا كل اللي تقدروا عليه، بس للأسف إنه لحد اللحظة دي، لسة القضية ما اتحلتش والجاني مازال مجهول.

اتسعت عينا ياسمين باستنكار واضح، وقطب احمد حاجبيه وظهر قدر من الاهتمام على ملامحه، فأكمل الدكتور عمرو سريعًا:

- شهادة كل الشهود كانت غير مُقنعة، كل شهادة فيها عيوب معينة تخلينا ما نقدرش نعتمد عليها أو نعتبرها دليل إدانة، التحليل النفسي لأقوال الشهود وصلنا في النهاية لنتيجة عكسية، وبدل ما نقدر نحدد مين هوه الجاني رجعنا لنقطة الصفر.

ظهرت الحيرة على وجهي ياسمين وأحمد، فتابع الدكتور عمرو حديثه:

- تخيلوا لو القضية دي بتتعرض علينا للمرة الأولى لكن بدون شهود، إيه اللي ممكن نعمله عشان نوصل للقاتل، أنا عارف إنها مهمة صعبة، وعارف كمان إننا عملنا اللي علينا ودة بشهادة رئيس المباحث نفسه، لكن أنا لسة عندي

أمل إننا نقدر نحل اللغز دة، ودة اللي خلاني أطلب من رئيس المباحث فرصة تانية.

ظهر قدر من التردد وعدم الاقتناع على وجهي ياسمين وأحمد، وبدا أنهما يتحاشيان النظر إليه، وكل منهما يبحث عن الرد المناسب بدون جدوى، شعر الدكتور عمرو بقلّة حيلتهما فأردف بهدوء:

- مفيش داعي لأي إحساس بالإحراج، أنا مش بطلب منكم حاجة غير إننا نفكر مع بعض بصوت عالي.

سادت لحظة من الصمت، ثم أخذت ياسمين زمام المبادرة وقالت:

- أنا بصراحة كنت شايفة إن شهادة الشهود دي هي أملنا الأخير، خصوصا مع موضوع السرية اللي احنا ملزمين بيه ده، طبعا الشيء المنطقي في أي جريمة قتل إننا ندور على الدافع أولا، لكن حساسية منصب والد الضحية وسعت من دايرة البحث جدا..

بدا عليها التردد للحظة ثم هزت كتفيها واستطردت:

- للأسف أنا مش شايفة إن فيه طرف خيط ممكن يوصلنا لأي حاجة.

حول الدكتور عمرو بصره تجاه أحمد بهدوء.

- وأنت يا أحمد، رأيك إيه؟

- .....

لم يرد أحمد، بل بدا عليه الشرود وكأنه لم يسمع الحديث أصلًا، ظن الدكتور عمرو في البداية أن شروده هو مجرد استغراق في التفكير والبحث عن

رد مناسب، ولكن بعد لحظة بدا واضحًا جدا أنه غير متابع للحوار وأن عقله في مكان آخر تمامًا.

- أحمد؟

قالها الدكتور عمرو بصوت مرتفع وبشيء من الضيق، أجفل أحمد ورفع نظره تجاه الدكتور عمرو بانزعاج وكأنه استيقظ من سبات عميق.

- أنت كويس يا ابني؟ مالك؟

- آه تمام مفيش حاجة، منمتش كويس بس.

رد أحمد باقتضاب.

- طيب دلوقتي ياسمين شايفة إن مفيش أي خطوة نقدر ناخدها، أنت عندك أي أفكار؟؟

نظر إليه احمد بعينين خاويتين لبرهة، ثم هز رأسه نفيًا ببطء كدلالة على النفي.

رمقه الدكتور عمرو بغيظ وتحفّز، هذا الشخص غير طبيعي اليوم بالمرة.

ظهر قدر من الإحراج على ملامح ياسمين وأحمد، وبات واضحًا أنهما لا يمتلكان شيئا يقدمانه سوي ذلك الماء البارد الذي سكباه على ذروة حماسة الدكتور عمرو المتقدة.

لم يستطع الأخير أن يكتم غيظه أكتر من ذلك فانفجر أخيرًا.

- يا حلاوتكم، يعني أنتم جايين بكل بساطة تقولوا مش هنقدر نعمل حاجة؟ إيه الاستسلام ده؟ أنا عارف إن القضية تقيلة على قلبكم وعايزين تخلصوا منها وتركزوا ف شغلكم، وعارف كمان إني ممكن أكون اتسرعت لما

طلبت مهلة تانية، بس أنا عايز أفكركم بحاجة ممكن تكونوا ناسيينها، أنتم المفروض بعد كام سنة هتكونوا أكبر أساتذة علم نفس الجنائي في مصر، والمفروض إنكم تكونوا فاهمين ومستوعبين كويس كل كبيرة وصغيرة في العلم ده، من أول المبادئ الأساسية اللي يعرفها الطلبة العاديين لحد التفاصيل اللي بين السطور، أنا طول عمري بقول إن أنتم الاتنين عندكم موهبة فطرية في المجال دة، وروني شغلكم بقى.

بعثت كلمات الدكتور عمرو ولهجته الانفعالية قدرًا لا بأس به من الحماسة لدى أعضاء فريقه، وأخذ كلٌّ منهما يحاول أن يعصر ذهنه أملا في الوصول إلى فكرة ما، بينما استعاد الدكتور عمرو هدوءه بعدما أفرغ تلك الشحنة العصبية من داخله، وبدأ يبحث بدوره عن طرف خيط، أحداث القضية بالكامل تدور في ذهنه وتتتابع كشريط سينمائي.

لحظات من الصمت المشوب بالتوتر تمر، يقطعها الدكتور عمرو موجهًا حديثه لياسمين:

- مين هو المجرم يا ياسمين؟ امشي معايا كدة خطوة بخطوة.

- المجرم هو الشخص اللي ارتكب أي فعل مخالف للقانون أو العرف، ونتج عن الفعل ده ضرر أو إيذاء للغير، طبعا ده التعريف الشامل لكن فيه تعريفات تانية..

قاطعها الدكتور عمرو بسرعة:

- لا، كدة تمام أوي، بس أنا ما قصدتش أسأل عن المجرم من الناحية القانونية، أنا سؤالي عن العوامل اللي بتخلي شخص طبيعي ينتحل صفة

الإجرام، وطبعا كالعادة هنتناسى قصة الدافع دي لأنها لسة مش واضحة بالنسبة لنا.

- أنا شايفة إن المجرم ممكن يكون شخص عادي لكنه بيتأثر بعوامل كتيرة ممكن تعمل تحول في شخصيته، ممكن تكون عوامل اجتماعية في الأساس زي التعرض للأذى في مرحلة الطفولة، أو عدم الإحساس بالأمان الأسري، أو الحياة في ظروف مادية صعبة، في حالات كتير بيكون الفقر هو أول دوافع الشخص العادي للجنوح، لما تتكلم عن مراهق لسه بيفتح عنيه على الدنيا ويلاقي نفسه محروم من أبسط حقوقه فيها، بيبقى من الصعب جدًّا إن عقله يستوعب ده إلا لو هو متربي على القِيَم وعارف يعني إيه صح وغلط وحلال وحرام، وحالات الإدمان برضو دي قصة تانية، لأن الإدمان ده كفيل بعمل تغيير جذري في الشخصية وبأقل مجهود، وفي حالات الاحتياج للمخدر ممكن المدمن يعمل أي حاجة حتى لو كانت جريمة قتل، طبعا لازم نضيف مع كل العوامل دي صفات الشخصية السيكوباتية اللي اتكلمنا عنها قبل كدة.

أومأ الدكتور عمرو برأسه مؤيدًا، ثم بادر أحمد بالحديث لأول مرة منذ بدأ الاجتماع:

- والطريق الأسهل من كل دة، لما تكون النشأة نفسها في وسط فاسد أو إجرامي، والمثل المعروف جدا في الموقف ده إن ابن الحرامي بيطلع حرامي وابن تاجر المخدرات بيطلع تاجر مخدرات، وأنا شخصيًّا شايف نسبة الشذوذ في المبدأ دة ضعيفة جدًّا، نادر لما بيطلع للمجتمع شخص نضيف من بيئة موبوءة،

لأنه بكل بساطة مش بيبقى عارف أو مستوعب إنه بيعمل حاجة غلط وهو شايف كل اللي حواليه بيعملها.

تأمله الدكتور عمرو باهتمام للحظة، أعجبه حديثه، ولكن لم تعجبه تلك اللهجة المنكسرة التي تكلم بها، الفضول يكاد يقتله لمعرفة سبب تغير ذلك الشاب إلى هذا الحد، ينفض تلك الفكرة من رأسه بسرعة ثم يعاود الحديث بتركيز:

- كلام جميل، لكن العوامل البيئية والاجتماعية لوحدها ما أعتقدش إنها العامل الأساسي في تكوين شخصية المجرم، لازم يكون الإنسان نفسه عنده استعداد فطري للإيذاء أو ميول عدوانية، كمان لازم يكون شخص معندوش القدرة على التحكم في غرايزه أو إشباع دوافعه، لو فاكرين تفسير فرويد اللي درستوه في الكلية لأنماط الشخصية، ما بين (الهُوَ) اللي بتمثل الدوافع الفطرية، و(الأنا) اللي المقصود بيها مدى قدرة الفرد على التوفيق بين رغباته وبين العالم الخارجي، و(الأنا العليا) اللي بتمثل نسبة المبادئ اللى اتكونت في عقل الإنسان ووجدانه، بنلاقي إن فئة المجرمين هي فئة ارتفعت عندها درجة الأنانية لدرجة إن التحكم فيها أو منعها أصبح شيء مستحيل، فحتى الفرد لو مؤمن بمبادئ إيجابية زي الحق والخير وخلافه، فده مش هيمنعه من إشباع رغباته حتى لو كانت غير مشروعة لأن (الهو) ببساطة هتنتصر.

رفعت ياسمين يدها معترضة:

- لا، اسمح لي بقى يا دكتور عمرو، بعد الاختبار اللي أنا عملته في البنك ده اتأكدت من صعوبة التعرف على المجرم عن طريق النوع دة من

التحليلات، يعني التحليل ده ممكن يكون مؤشر على إن الشخص عنده استعداد لارتكاب الجريمة بدرجة معينة، لكن ما أقدرش أعتمد عليه بصفة أساسية لأن النتيجة في الأخر هي نتيجة استرشادية، ممكن يكون الشخص المشتبه فيه عنده درجة استعداد عالية لارتكاب الجريمة، لكن ممكن ببساطة جدا يكون بريء لأن مفيش أي دافع يخليه يعمل كدة.

ثبَت الدكتور عمرو بصره على ياسمين للحظات ثم تمتم بضيق:

- يعني بنلف نلف ونرجع لنفس النقطة، دافع الجريمة، يا جماعة احنا لو فكرنا بالأسلوب ده عمرنا ما هنوصل لحاجة، المباحث نفسها مش عارفة توصل لحد دلوقتي لأي دليل، خلونا نفكر بشكل إيجابي شوية، احنا متفقين إن عوامل البيئة الاجتماعية والعوامل الوراثية والنفسية ممكن تساهم في تحويل الشخص الطبيعي لمجرم، ليه منحاولش ندرس العوامل دي بنفس الطريقة اللي عملنا بيها تحليل الشخصية السكوباتية قبل كدة؟ ولو وصلنا للشخص اللي بتجتمع فيه كل المؤشرات دي نركز اهتمامنا عليه ونحاول نعرف أكتر عن طبيعة علاقته بالقتيلة.

نظر أحمد بتهكم إلى الدكتور عمرو ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، تأمله الدكتور عمرو بتساؤل:

- برضو حضرتك نسيت يا دكتور إن المهمة سرية، إزاي هتقدر تتحرى عن المشتبه فيهم وتجمع البيانات الدقيقة دي عن تفاصيل حياتهم ونشأتهم وسلوكهم؟ أنت عشان توصل لنتايج سليمة يبقى لازم معلوماتك تكون كاملة والصورة قدامك تكون واضحة، مع ملاحظة إنك بتسأل عن معلومات

شخصية حسّاسة تخص المشتبه فيهم ومفيش معاك أي سلطة، الكلام دة كان ممكن ينفع لو كنا بنتعامل مع عينات من المجرمين الحقيقيين، ساعتها كان ممكن ندرس كل الجوانب اللي احنا عايزينها ونوصل للنتايج العلمية أو المنطقية اللي بندور عليها، لكن دلوقتي أنت بتتعامل مع ناس عادية جدا والموضوع من أوله لآخره مش قانوني لأن مفيش متهم أساسي في القضية.

على الرغم من الطريقة الجافة التي تحدث بها أحمد، إلا أن عباراته بدت صحيحة وموضوعية إلى درجة كبيرة، الأمر الذي دفع الدكتور عمرو مرة أخرى إلى التزام الصمت مجبرًا، صمت طال كثيرًا هذه المرة.

دقائق تمر بطيئة حائرة، تقطعها ياسمين بصوت نحنحة يدل على استعدادها للكلام:

- طيب إيه رأيكم في التفسير البيولوجي للجريمة؟

اتسعت عينا أحمد اندهاشا وانزعاجا وفغر فاه بشكل ملحوظ، فقد بدا أن ما تقوله غريبًا لدرجة لا تُصدق، لم يختلف رد فعل الدكتور عمرو كثيرًا، فقد ظهر الذهول الممتزج بالاستنكار على ملامحه، الفارق الوحيد بينه وبين أحمد هو تلك اللمعة التي ظهرت في عينيه، وتلك الابتسامة الحذرة التي تسللت إلى شفتيه شيئا فشيئا، والتي اتسعت بعد ذلك لتتحول إلى ضحكة قصيرة.

– أنت بتضحك يا دكتور؟

قالها أحمد بدهشة وحيرة.

نظر إليه الدكتور عمرو ولم يرد، شعرت ياسمين بالحرج فاستدركت بخجل:

- ده مجرد اقتراح يعني.

همَّ أحمد بالرد عليها، ولكن استوقفته سإشارة الدكتور عمرو الحازمة، جميعهم يتبادلون النظرات، ياسمين تشعر بالندم بعد إبدائها ذلك الاقتراح، وأحمد يشعر بقليل من التوتر وعدم جدوى ذلك الاجتماع من الأساس، والدكتور عمرو يستغرق في التفكير بهدوء كعادته، ثم يُلقي قنبلته فجأة:

- وليه لا؟

رفع أحمد بصره إليه غير مصدقٍ ما قال، حتى ياسمين صاحبة الاقتراح بدت متفاجئة.

بذل أحمد مجهودًا مُضنيًا ليسيطر على غيظه وذهوله ثم قال:

- لا، لأسباب كتير يا دكتور، أنت عارف حضرتك إن النظريات البيولوجية في تفسير الجريمة أثبتت فشلها من الناحية العلمية، وده لأنها معتمدة بشكل أساسي على التجارب اللي اتعملت على عينات عشوائية من المجرمين من غير ما يكون لها أي أساس منطقي، بالعقل كدة ازاي ممكن أقتنع إن خصائص شكلية أو جسمانية في الإنسان ممكن تدل على إنه مجرم؟ إيه علاقة ده بده؟

ردَّ الدكتور عمرو بشيء من التركيز مدافعًا عن رأيه:

- تصحيح بس، التجارب دي اتعملت على عينات عشوائية من المجرمين، لكن الصفات الجسدية المشتركة بينهم كان معدل تكرار ظهورها

عالي جدا، كان فيه خصائص جسمانية بيوصل معدل تكرارها لأكتر من 60 ٪ ودي نسبة مش بسيطة أبدا.

- أيوة يا دكتور بس احنا المفروض نستند لأساس علمي عشان نوصل لنتيجة مرضية أو مقنعة، لكن صعب جدًّا إن أساس شغلنا يكون مجرد تجارب بدائية، أنا في الحقيقة ما كنتش مقتنع بدراسة العوامل الاجتماعية والبيئية المحيطة بالمجرم، لكن برغم كدة شايف إنها أهم بكتير جدا من العوامل البيولوجية.

- إنت لسة قايل يا أحمد إن التحليل الاجتماعي والنفسي ده مستحيل تطبيقه.

- أيوة يا دكتور أنا قلت كدة فعلا، لكن ده مش معناه إني مقتنع بالمذهب البيولوجي ولا بفكر فيه من الأساس، واسمح لي يا دكتور بعد إذنك، أنا مش هاكمل في القضية لو حضرتك واقفت إننا نستخدم النوع ده من التحليلات.

تنهد الدكتور عمرو بشيء من الضيق، ونظر تجاه ياسمين ورفع حاجبيه بحركة تلقائية تعني ما رأيك؟ هزت ياسمين كتفيها ثم قالت:

- أنا قلت ده مجرد اقتراح، يمكن يكون غلط إننا نلجأ للأسلوب ده ولكن إيه البديل؟ أنا حاليًا شايفة إن الطريق قدامنا مسدود والطبيعي إننا نسيب الموضوع للمباحث ونشيل ايدينا، بس لو فكرنا إننا نكمل يبقى مفيش قدامنا أي اختيار غير ده.

للمرة الأولى يلتفت أحمد إلى ياسمين ويوجه حديثه لها بصورة مباشرة:

- يعني أنتِ مقتنعة إننا ممكن نعرف المجرم بناءً على تغيرات معينة في أعضاء جسمه؟

- مش مسألة اقتناع يا أحمد، مسألة إن ده أسلوب كان متبع في التحليل الجنائي في فترة من الفترات، أنا معاك إنه مبني على مجرد ملاحظات سطحية للمجرمين ولصفات معينة في تكوينهم الجسماني، طيب وإيه المشكلة؟ إيه الضرر في المحاولة، تخيل معايا إننا حاولنا نطبق الأسلوب ده وفشلنا أو ما وصلناش لأي نتيجة، ولا حاجة، هنعتذر عن تكملة المهمة والقصة هتخلص لحد هنا، لكن لو قدرنا نثبت صحة النظرية البيولوجية ولقينا إن أغلب الخصائص الجسدية اللي بتميز المجرمين موجودة في شخص واحد وقدرنا نثبت بعد كده إنه الجاني فعلا، هيبقى الموضوع مش مجرد جريمة واتحلت، ده هيبقى اكتشاف علمي.

كانت ياسمين تتحدث بقدر وافر من الحماسة والشغف، فظهر تأثير كلماتها سريعًا على وجه الدكتور عمرو الذي ظهرت عليه علامات الاستحسان، حتى أحمد بدأت علامات التفكير تظهر على ملامحه وإن لم يكن قد اقتنع كليًّا بعد، شعرت ياسمين بتأثير كلماتها فازدادت حماستها وأردفت:

- إحنا حاليا مفيش علينا أي مسئولية، والمباحث أملها ضعيف جدا في إننا نقدر نحل القضية، يعني احنا مش واقعين تحت أي ضغط، ممكن نشتغل بهدوء وتركيز كأننا بنعمل بحث علمي أو رسالة دكتوراة، وحظنا حلو إن كل المشتبه فيهم في المستشفى حاليا بسبب الحادثة، ده هيساعدنا جدا لو احتاجنا أي تحليلات أو فحوصات.

بدا واضحا أن الفكرة قد اختمرت في عقل ياسمين واتضحت الصورة أمامها جلية، وبدا أن الدكتور عمرو قد ازداد اقتناعه بالفكرة أكثر فأكثر، وبدا يميل إلى تطبيقها فعلا بعكس أحمد الذي ظهر على ملامحه التجهم والتذمر.

على الرغم من صعوبة تطبيق هذه النظرية التي تصل إلى حد الاستحالة، وعلى الرغم من غرابة الفكرة والتي تجعل من تصديقها أمرًا عصيًّا على النفس، إلا إنها قد بدت المخرج الوحيد للدكتور عمرو ورفاقه الحائرين، الصمت يسود مرة أخرى، ياسمين تبدو متحمسة جدًّا لفكرتها ولكونها ستتبع أسلوبا غير تقليديًّا في البحث وستمر بتجربة غير مألوفة، أحمد يبدو مترددًا بعد ما قالته ياسمين عن فكرة الإنجاز العلمي، عقله يرفض الاستمرار، لكنه يعلم تماما أن فضوله سينتصر في النهاية وسيدفعه دفعًا إلى الاستمرار في المغامرة، والدكتور عمرو على الرغم من وصوله للحل الذي سيجعله يُكمل التحقيق في القضية، إلا إنه يبدو مثقلًا بالهمَّ، الخطوة المهمة تنتظره الآن، أسيكون مقدرًا لتلك الفكرة أن ترى النور أم سيتم وأدها في مهدها؟ الأمر يعتمد كليًّا على تلك المقابلة التي عزم أن يجريها سريعا.

- نعم يا دكتور؟ أنت بتهرّج؟؟

تصلبت نظرات الدكتور عمرو حين سمع تلك الجملة، وراوده شعور بالندم على طلبه مقابلة العميد محسن وجها لوجه، كانت مكالمة هاتفية ستفي بالغرض.

تنحنح الدكتور عمرو بشيء من الإحراج الممتزج بالخوف، ثم أردف بصوت منخفضٍ وهو يتحاشى نظرات العميد محسن المشتعلة:

- يا فندم دة مجرد اقتراح، وبعدين احنا..

- اقتراح فاشل زي اللي فكر فيه.

ابتلع الدكتور عمرو ريقه بصوت واضح ولم يُكمل حديثه، وشعر بأن الفكرة في طريقها لأن تذهب أدراج الرياح، من المستحيل تقريبًا إقناع العميد محسن بالفكرة حاليا.

ماذا يفعل؟ شيء بداخله يُلِح عليه أن ينصرف فورًا ويكفي ما وصلت إليه الأمور عند ذلك الحد، وشيء آخر يدفعه دفعًا إلى مزيد من الإلحاح والتشبث بالرأي حتى لو كلفه ذلك أن يتعرض لمزيد من الإهانة.

يرفع بصره تجاه العميد محسن ويقرر أن يحاول لمرة أخيرة..

- يا فندم صدقني، احنا مش هنبذل أي مجهود في تطبيق المبدأ ده، الموضوع مش هيتعدى شوية تحاليل وأشعة وفحوصات بسيطة، ليه ما نجربش؟ وبعدين ده مبدأ أساسي من مبادئ علم النفس الجنائي.

احمرَّ وجه العميد محسن أكثر وبدا أنه سينفجر غيظًا، ثم أردف بعصبية:

- مبدأ إيه يا بيه؟ أنت عايزني أختار الجاني من بين المشتبه فيهم على أساس اعتبارات شكلية؟ إزاي يعني؟ أروح له وأقوله وريني وشك كدة، آه أنت مناخيرك كبيرة وعنيك ضيقة، تبقى أنت أكيد الجاني، أنا كنت فاهم إنك فاهم أبعاد القضية كويس، الشخص اللي هتثبت عليه التهمة يا دكتور هيتلف حوالين رقبته حبل المشنقة، وأي ثغرة في القضية أو أي دليل ضعيف هيهدم كل الشغل اللي عملناه، وأظن إنك عارف كويس مين اللي بيتابع التحقيقات في القضية دي، تفتكر هيعمل إيه فيا أنا وأنت لو عرف بالتهريج اللي أنت عايز تعمله ده؟ والله مش بعيد أبدا إنه يسيب المشتبه فيهم ويحاكمنا احنا.

أخرج الدكتور عمرو من جيبه منديلًا ليمسح عرقه وذلك الرذاذ الذي ملا وجهه بفعل صراخ العميد محسن، ثم استنشق نفسًا عميقًا وقال:

- يا فندم الموضوع مش بالسطحية دي، المبدأ ده مش بيركز على شكل أو ملامح المشتبه فيه الخارجية، ده مبدأ بيقيس متغيرات معينة جوه الجسم البشري، نسبة المتغيرات دي ودرجتها بتختلف من شخص للتاني وبيكون ليها تأثير مباشر على سلوكه وطريقة تفكيره وتصرفاته ومستوى العدوانية عنده، وأنا مش هتجادل مع حضرتك كتير في حيثيات النظرية البيولوجية لأن ده جدل علمي مش هيوصلنا لنتيجة مريحة، في كل الأحوال احنا ملزمين بإيجاد الدليل القاطع زي ما حضرتك قلت، بس إيه المانع من عمل التجربة دي والاسترشاد بنتيجتها؟ أنا مش بقولك إن النتيجة هيبقى مُسَلَّم بيها لكنها ممكن تساعدنا في تضييق نطاق البحث، وفي كل الأحوال التحاليل والفحوصات

المطلوبة مش هتاخد من وقتنا أكتر من كام يوم، يعني عنصر السرعة موجود ودي ميزة كبيرة خصوصا في قضية حساسة زي دي.

- وأنت فاكر إن الجهات العليا اللي بتحقق في القضية هتفهم الكلام ده أو هتديله أي اهتمام؟

- والله يا فندم مش عارف أقولك إيه، لكن هي معرفتهم بحاجة زي دي هتفيدنا بإيه؟ ده هيبقى ضغط إضافي علينا مالوش أي لازمة، أنا شايف إن الصح في المرحلة دي إنهم يعرفوا نتيجة التحليل الجنائي اللي عملناه لشهادة الشهود وخلاص على كدة، وتفضل التحقيقات العادية اللي المباحث بتعملها هي المعلومة ليهم بشكل رسمي.

نظر إليه العميد محسن بتهكم ثم قال:

- طيب والفحوصات والتحليلات المطلوبة دي هتتعمل تحت أي اسم؟ أنت ناسي إننا لازم نستأذن من أهالي المشتبه فيهم قبل ما نتخذ إجراء زي ده؟

ارتسمت ابتسامة التهكم هذه المرة على وجه الدكتور عمرو الذي أردف:

- يا فندم أنا متأكد إن المباحث لو عايزة تعمل أي حاجة هتعملها وهتلاقي حل، وبعدين إحنا مش هنجيبهم من بيوتهم عشان نعمل لهم التحاليل دي، هما أساسا في المستشفى يعني الأمور سهلة، وهيبقى شيء مقبول ومنطقي جدا لما يتعمل لهم أشعة على المخ أو تحليل دم تحت أي اسم، متابعة للحالة مثلا أو كإجراء وقائي.

ظهر قدر من الضيق وعدم الاقتناع على وجه العميد محسن، الانطباع نفسه الذي بدا على وجه أحمد في أثناء مناقشة هذا الأمر، من المؤكد أنه لم يكن ليوافق أبدا على هذا الحل لولا عدم وجود بدائل أمامه.

نظرة استسلام تبدو في عين العميد محسن، يقابلها ابتسامة ارتياح وانتصار على الجانب الآخر، لحظات من الصمت تسود قبل أن يقول العميد محسن بلهجة يائسة:

- يعني ده الحل الوحيد قدامك؟ فكر كويس يا دكتور لو سمحت، ممكن تكون فيه أساليب منطقية تانية بدل الأسلوب العجيب ده.

- للأسف يا فندم دي الطريقة الوحيدة المتاحة قدامنا حاليًا، أنا بحثت بالتفصيل في الموضوع مع الفريق اللي شغال معايا ولقينا إن الأسلوب ده في التحليل الجنائي هو الوحيد اللي ممكن نطبقه بالنظر لتفاصيل القضية وسريتها وكمان ضيق الوقت المتاح.

تراجع العميد محسن في مقعده، وبات واضحًا أنه قد حسم أمره واتخذ قراره بالموافقة:

- تحب تبدأ امتى؟

اتسعت ابتسامة الدكتور عمرو وارتسمت في عينيه نظرة امتنان..

- يوم السبت إن شاء الله.

عقارب الساعة تشير إلى التاسعة مساءً، كعادة والديه قد خلدا للنوم مبكرا، وذهب أخوه الوحيد لمشاهدة إحدى المباريات على المقهى برفقة أصدقائه، وبقي هو وحيدًا، الوحدة التي بحث عنها وظن أنه سيجد فيها ملاذًا آمنًا، لم يجنِ منها سوى مزيد من الحيرة والأفكار السلبية السوداوية، فعلى الرغم من أنه يعلم جيدا أنها ليست له ولن تكون أبدا، وعلى الرغم من تلك الصدمة التي تلقاها ولم يستفق منها حتى الآن حين سمع بخبر خطبتها، إلا إنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فيها، وكان هناك مغناطيس ما يجذب قلبه وعقله إليها، مازال يجد لذّة ما حين يستعيد تفاصيل حديثها وملامحها وتعبيرات وجهها، لذة ممتزجة بالحسرة والألم لكنها تظل لذة على الرغم من كل شيء.

جرس هاتفه المحمول يرن، يرى اسم الدكتور عمرو على شاشته فيكسو ملامحه الضجر والتأفّف، فمزاجه الحالي لا يحتمل مزيدًا من الحديث حول تلك المهمة المعقدة عديمة الملامح، خاصة بعد تلك الفكرة المجنونة التي اقترحتها محبوبته بالبحث في الخصائص الجسدية للمشتبه فيهم، كان يرى في تطبيق تلك النظرية دربًا من السخافة وعدم الجدية، ولكنه لم يجرؤ على الاعتذار عن استكمال دورِه، ذلك المغناطيس اللعين يجره جرًّا إلى مكانها حيث كانت.

الدكتور عمرو يعاود الاتصال، من الواضح أنه مصرٌّ، فلا مجال للهروب إذن، يضغط على زر الرد مرغمًا..

- ألو..

- إيه يا ابني، أنت نمت ولا إيه؟

- لا أبدا والله يا دكتور، إزي حضرتك؟

- حضرتي كويس وتحت بيتك اهو، انزل يلا.

ظهر الاستغراب على ملامح أحمد حين سمع تلك المعلومة خاصة مع عدم وجود ميعاد سابق بينهما، من الواضح أن هناك مستجدات في القضية.

- خير يا دكتور، إحنا عندنا اجتماع؟

أطلق الدكتور عمرو ضحكة عالية ثم تابع بلهجة مرحة:

- اجتماع إيه بس، أنت شكلك نسيت..

- نسيت إيه؟

- النهاردة الجمعة، خطوبة ياسمين، يلَّا اجهز بسرعة أنا مستنيك.

نزل الخبر على رأسه كالصاعقة، كيف نسي ذلك الموعد؟ وكيف نسي أنه أحد المدعوين بصفته زميل عمل؟ عقله يبحث بسرعة البرق عن عذر مناسب فتخذله قريحته، يزداد شعوره بالارتباك والمفاجأة.

- آآآآ، معلش والله يا دكتور أصلي تعبان شوية، يعني آآ..

قاطعه الدكتور عمرو بلهجة حاسمة:

- مفيش أعذار، أنا كنت عايزك كمان عشان ندردش شوية في القضية، يلا متتأخرش لو سمحت عشان أنا واقف صف تاني وهاخد مخالفة.

همَّ أحمد بالاعتذار مرة أخرى لكنه سمع ذلك الصوت المميز لإغلاق الخط، يالها من ورطة!!! أي مأزق وضعه فيه الدكتور عمرو؟ وأيّة ليلة قاسية ستمر عليه؟! يشعر بالدم يتدفق إلى رأسه وبسخونة عارمة في وجهه، تلك الغصة في حلقه تنبعث من العدم وكأنها كانت موجودة دائما بانتظار الاستثارة، وشعور وليد بالسعادة يراوده على استحياء ويصيبه بالدهشة، كشعاع من نور أتى من بعيد لينير تلك العتمة التي ملأت قلبه، شعور بالسعادة لأنه على الرغم من كل تلك الآلام وتلك الظروف المحبِطة... سيراها.

استقبله الدكتور عمرو بابتسامة ودودة مرحة ثم انطلق بالسيارة، استنتج هو بذكائه أن المباحث قد وافقت على استكمال التحقيق في القضية ولم تعترض على ذلك المبدأ الغريب الذي يعتزمون تطبيقه، ليس هناك سبب آخر ليجعله يبدو سعيدًا بهذا الشكل.

على الرغم مما يشعر به من حزن إلا أنه قرر أن يشارك أستاذه تلك الفرحة..

- مبروك على الموافقة.

رفع الدكتور عمرو حاجبيه بدهشة، ثم ابتسم ابتسامة عريضة وأردف:

- هو أنا باين عليا أوي كدة؟

ابتسم أحمد بدوره وقال:

- بصراحة آه، بس مش قادر أعرف سبب السعادة دي، الموضوع ما أظنش إنه هيكون سهل.

استعاد الدكتور عمرو طبيعته المتزنة وقال:

- أنا عارف إن معاك حق، يمكن أنا ما اتعودتش أفشل أو أستسلم بسهولة، عشان كدة فرحت لما أخدت فرصة تانية، بس في كل الأحوال لازم نبدأ نفكر في الخطوة الجاية وندیها حقها في الاهتمام والدراسة، لأن دي هتبقى آخر فرصة.

أومأ أحمد برأسه موافقا، ثم شعر أنه لم يعد هناك ما يقال فحول بصره للناحية الأخرى وأخذ يتأمل المارة من شباك السيارة بنظرة خاوية، حتى سمع الدكتور عمرو يسأله بحماسة:

- طيب إيه رأيك؟ نبدأ منين؟ متهيألي النظرية البيولوجية مبادؤها بسيطة ومحدودة، يعني مش هناخد وقت طويل عشان نعرف نحط خطة عمل مناسبة.

- بالظبط، أنا الحقيقة مش فاكر من المبادئ البيولوجية دي غير تجارب (دي توليو) اللي اتكلمت عن زيادة إفراز الغدة الدرقية وعلاقته بجرايم العنف، فيه برضو تحليل الكرموسومات اللي اتعمل لعينات من المجرمين والمساجين وأثبت إن نسبة كبيرة منهم عنده كروموسومY زيادة، أنا شايف إن التحليلات دي هي اللي وضعت حجر الأساس للنظرية البيولوجية، خصوصا إنه تم تطبيقها على عدد كبير من المجرمين وحققت معدل تكرار عالي.

ظهرت علامات الاستحسان على وجه الدكتور عمرو فأردف:

- ممتاز، الميزة كمان في التحليلات دي إنها سهلة جدا ونتايجها سريعة نسبيًّا، يعني مناسبة للتطبيق في القضية بشكل كبير.

سكت الدكتور عمرو للحظة، وبدا أنه قد تذكر شيئًا ما فاستطرد سريعًا:

- فيه برضو الحالات اللي ظهرت عندها ذبذبات أو موجات دماغية شاذة لما اتعمللها رسم مخ، دي من أكتر التجارب المشهودة في المجال ده، تخيل إن موجات الدماغ غير الطبيعية دي ظهرت في حوالي 70٪ من المجرمين، صعب أوي تكون النسبة دي مجرد صدفة.

- طبعا لا، نسبة عالية فعلًا.

ردَّ أحمد باقتضاب، ثم بدا وكأنه قد تذكر فجأة ذلك الحفل الذي يتجه إليه فعاد للشرود والتجهم مرة أخرى.

لم يمر وقت طويل حتى وصلا للمكان المنشود، دقات قلب أحمد تتسارع كلما اقترب الموعد المشئوم، يتولد بداخله خوف من تلك اللحظة التي يراها فيها وقد صارت لغيره ولم يعد هناك مجال للتراجع، أصوات الحفل الصاخبة تبدو أعلى كلما اقترب أكثر، ولكنه لا يشعر بها على الإطلاق، إحساس عارم بالترقب وبالرغبة السريعة في الخلاص من ذلك الموقف، لقد صار الأمر واقعًا فلا داعي لمزيد من التفكير فيه، ربما ستقتل رؤيتها مرتدية فستان الخطبة ومتأبطة ذراع خطيبها كل ما تبقى بداخله من أمل، يخطو خطوات شبه ثابتة إلى داخل القاعة متجاهلًا أقارب العروسين الذين تجمعوا خارجها، يبحث بعينيه عنها حتى يلمحها أخيرًا..

من مفارقات القدر، أن ذلك الشعور الذي ملأ قلبه في تلك اللحظة لم يكن سلبيًّا على الإطلاق بل بالعكس، رؤيتها بكامل زينتها كالبدر المشرق في تمامه وتلك الابتسامة الساحرة المعهودة على شفتيها، الأغاني والتهاني

والزغاريد والضحكات التي تعالت، كلها أجواء مبهجة مبهرة آنَسَتْ للحظات ما يعاني منه من بؤس، من الغريب أنه لم يلتفت للعريس إطلاقا ولم يشغل باله به وكأنه غير موجود، بل ولم يشعر تجاهه بأي قدر من الحقد أو الحسد، لم تشغله سوى تلك السعادة التي رآها في ملامحها والتي ظنَّ فيما مضى أنها ستكون سبب تعاسته، ولم يكن يدرك أن قلبه سيخدعه وسيفرح لرؤيتها سعيدة لهذا الحد، أي مشاعر نبيلة صادقة يحملها لها ولا تدري عنها شيئا، وأي حب سيذهب أدراج الرياح متعللًا بالنصيب والقدر.

- إيه يا أحمد؟ حد يدخل علطول كدة من غير ما يسلم ع الناس؟

أيقظه سؤال الدكتور عمرو من أفكاره، فالتفت نحوه بحرج ولم يرد، بل اكتفى بابتسامة باهتة.

- إيه رأيك يا دكتور، نقعد في الترابيزة دي ولا اللي ورا؟

- تعالى بس نسلم عليها الأول، عشان لما نحب نمشي في أي وقت يبقى عملنا الواجب.

يخطو أحمد خلف الدكتور عمرو الذي اتجه بخطوات مسرعة نحو الكوشة التي يجلس عليها العروسين، حتى وصل إليها، فوقفت ياسمين ومدت يدها نحوه بترحاب فصافحها بكلتا يديه، كلمات التهنئة المعتادة تتردد ونظرة الدكتور عمرو الأبوية تبدو أجمل ما في المشهد، عباراته الصادقة النابعة من القلب يبدو تأثيرها واضحًا على وجه ياسمين الذي تورد سعادة وخجلًا، يسارع الدكتور عمرو بمصافحة العريس ثم يتخذ مكانه بجوار العروسين

لالتقاط الصور التذكارية، بينما يقف أحدهم يراقب ما يحدث بوجوم ككومبارس صامت.

- تعالَ يا أحمد.

يشير إليه الدكتور عمرو أخيرًا، فيتنفس الصُّعداء، بعدما كان على وشك الابتعاد شيئا فشيئا والعودة للجلوس بالقاعة، لم يعرف يوما كيف يتصرف في مثل تلك المواقف، لكن شجعته ابتسامتها الواسعة على المضي قدما.

- أحمد، أنا مبسوطة أوي إنك جيت، أنا نسيت أعزمك بشكل شخصي بس والله فرحت أوي لما شفتك.

ارتسمت ابتسامة على وجهه بفعل كلماتها الرقيقة، كلمات بسيطة لكنها كانت كافية جدًّا لتجبر خاطره، هي تحمل له قدرًا وافرًا من المعزة بدا مرضيا للغاية في ذلك التوقيت.

مد يده إليها مصافحًا فصافحته بحراراة ومرح، ثم شدته شدًّا نحو خطيبها..

- تعال أعرفك على كريم..

صافح الأخير متمتمًا ببعض كلمات التهنئة ثم أخذ يتأمله للحظات، يبدو شابًّا وسيمًا مهذبًا و(ابن ناس) كما يقولون، يبدو جديرًا بها والأمور تبدو مستتبة والأجواء جميلة، فلا يسعه إذن سوى أن يتمنى لهما التوفيق.

انتهت مرحلة السلامات وتم أداء الواجب بنجاح، وتزامن ذلك مع بداية فترة الاستراحة المخصصة للعروسين، انتهز أحمد الفرصة للخروج من القاعة واستنشاق بعض الهواء النقي في الرَّدهة، تبعه الدكتور عمرو الذي بدا وكأنه

يبحث عن ملاذٍ آمن من تلك الضوضاء الشنيعة، يشعر أحمد بصدره يعود للانقباض بعد تلك اللحظات القليلة من البهجة العابرة، ويعود ليرى الصورة مرة أخرى من منظوره الخاص بعدما رآها بعينها هي، من المؤلم أن تتبخر كل تلك الأحلام الوردية بهذه السهولة، أكثر ما يشغله هو شكل علاقته بها في المستقبل وكيف ستكون، أَسَيتقبَّل عقله ذلك الوضع الجديد أم سيظل رافضًا كما رفض قلبه؟ وتلك التفاصيل الصغيرة التي أدمنها، هل سيستطيع أن يضع حدًّا قاسيًا لكل ما كان مسموحًا به فيما مضى؟ هل سيستطيع أن يمنع نفسه من استراق النظر إليه ؟ من تذكُّر حديثهما معا كلمة بكلمة؟ من استرجاع طريقة كلامها ونظرتها وابتسامتها والاستمتاع بها مرات ومرات.

- نورتوني يا جماعة والله.

التفت أحمد والدكتور عمرو ناحية مصدر الصوت، وسرعان ما اتسعت أعينهم دهشة حين وقع بصرهم على ياسمين التي تركت عريسها وحيدا وجاءت لتعبر لهم عن شعورها بالامتنان، ألجمت المفاجأة لسان أحمد، فكان الدكتور عمرو أول من بدأ بالحديث:

- أنتِ بتعملي إيه هنا؟ ما يصحش كدة على فكرة.

قالها الدكتور عمرو وبعينه ظهرت نظرة عتاب واضحة، أطلقت ياسمين ضحكة قصيرة وهزّت كتفيها ثم أردفت:

- عادي، عايزة أشمَّ نَفَسي شوية.
- أيوة بس الناس تقول إيه؟
- محدش واخد باله، مشغولين بالبوفيه.

قالتها وأطلقت ضحكة أخرى، فضرب الدكتور عمرو كفا بكف ثم أشار لأحمد وقال:

- إيه العروسة المجنونة دي؟

ابتسم أحمد ابتسامة هادئة ولم يرد، تلاشت ابتسامة ياسمين سريعًا وظهر على ملامحها الفضول فجأة. ثم سألت الدكتور عمرو بلهفة:

- صحيح، إيه الأخبار؟ وصلنا لفين؟

فهم الدكتور عمرو قصدها سريعا:

- تمام الحمد لله، المباحث وافقت إننا نكمل، بس بعد معاناة.

رفعت ياسمين حاجبها استحسانًا ثم أردفت:

- دة خبر جميل، طيب هنبدأ منين؟

أخبرها الدكتور عمرو بملخص تلك المناقشة التي دارت بينه وبين أحمد، تابعت هي ما يقول باهتمام بالغ حتى انتهى من حديثه فبدت وكأنها تحاول استيعاب ما سمعت وتُمعن التفكير فيه:

- ممم كويس جدًّا، فعلا دي تعتبر مبادئ أساسية ولازم نطبقها، الحقيقة أنا قرأت كتير جدًّا عن النظرية دي، وعندي فكرة عن كذا بحث اتعمل فيها.

أومأ الدكتور عمرو برأسه مؤيدًا ثم قال:

- لو عندك أي حاجة جديدة قوليها طبعا.

تنحنحت ياسمين واكتست ملامحها بالجدية، وبدت تلك الجدية غير متناسقة تماما مع الفستان والماكياج الصارخ.

- الأبحاث اللي كنت قرأتها كانت بتتكلم عن نقطتين، النقطة الأولى هي العلاقة بين النقص الحاد في هرمون السيروتونين في الدم وعلاقته بالسلوك العدواني وجرايم العنف، الهرمون ده بيتحكم في وظائف الخلايا العصبية اللي بتحفز المخ على أداء مهماته بشكل طبيعي، وكمان له علاقة وثيقة جدًّا بالحالة المزاجية، ومعروف علميًا إن مرضى الاكتئاب وكتير من المرضى النفسيين بيبقى عندهم نقص في الهرمون دة بالذات، عشان كدة بيطلق عليه في الأوساط الطبية (هرمون السعادة)، الأبحاث اللي قريتها أثبتت إن فيه علاقة وثيقة جدًّا بين الانخفاض الشديد في مستوى الهرمون ده وبين ارتكاب الأشخاص لجرايم عنف جسدي، ومن أكتر الجرايم المسجلة للمرضى بنقص السيروتونين هي جرايم الضرب اللي أفضى في النهاية إلى موت، واضح إن المرضى في الحالة دي ممكن يوصلوا لدرجة عالية من الهياج وعدم السيطرة على النفس، كمان ظهرت حالات انتحار كتيرة لمرضى نفسيين كانت نسبة الهرمون في دمهم أقل بكتير من معدلها الطبيعي.

أخذ أحمد يتأملها بنظرات يشوبها الشك، من الواضح أنه لم يسمع عن هذا البحث من قبل إطلاقا، بينما ظهر القبول على ملامح الدكتور عمرو كالعادة:

- ممم جميل، والنقطة التانية؟

- النقطة التانية كان محورها هو التغيرات اللي بتظهر في بعض أجزاء المخ عند المجرمين وبتميزهم عن الأشخاص العادية، ومن أهم التغيرات دي هي المجموعة العصبية اللي ظهرت في الفص المركزي للمخ عند أغلب المجرمين لما اتعرَّضوا لأشعة إكس، الأبحاث دي عملها عالم مشهور في علم الأعصاب

اسمه (رُوث)، وكانت النتيجة اللي توصل ليها إن المجموعة العصبية الشاذة دي هي المسئولة عن أي سلوك عدواني أو جانح، أو أي أفعال شريرة بيعملها الإنسان بصفة عامة.

سكتت ياسمين للحظة وابتلعت ريقها، واسترقت النظر إلى مستمعيها اللذين بدا عليهما التركيز الشديد ثم أردفت:

- برضو من أهم الأبحاث اللي قريتها كانت الأبحاث اللي اتعملت عن حويصلة الأميجدالا، الحويصلة دي موجودة في المخ وحجمها صغير جدًّا لدرجة إن العلماء المتخصصين بيسموها (اللوزة)، واللوزة دي هي المسئولة عن قدرة الإنسان على التحكم في بعض النشاطات زي العنف والاندفاع والجنس، العلماء اكتشفوا إن نشاط حويصلة الأميجدالا الزايد بيؤدي لزيادة الميل للعنف بشكل واضح جدًّا، مع وجود بعض حالات إجرامية ظهر عندها النشاط الزايد للحويصلة، لكن للأمانة معدل تكرار الصفة دي بين المجرمين ما كانش مرتفع، المعلومة المهمة بقي إن المجرمين اللي ظهر عندهم نشاط زايد للحويصلة كانوا بيرتكبوا نوعين بس من الجرايم، قتل أو اغتصاب.

- عروستنا الحلوة تتفضل عشان نكمل الحفلة.

قالها الموظف المسئول عن تنظيم الحفل بالميكروفون الخاص بالقاعة، التفتت ياسمين للخلف سريعا لتجد كل العيون تحملق فيها باستغراب، حتى خطيبها الذي امتزج استغرابه بقليل من الضيق.

- عن إذنكم يا جماعة.

قالتها ولم تنتظر الرد، بل أسرعت تخطو للداخل بخطوات سريعة حذرة خوفا من التعثر بذلك الحذاء ذي الكعب شاهق الارتفاع.

تابعها الدكتور عمرو ببصره حتى دخلت القاعة، ثم قال بإعجاب:

- واضح نها مطّلعة على الموضوع ده كويس جدا، وعندها فكرة كبيرة عنه، بصراحة هي فتحت لنا أبواب ماكناش نعرف إنها موجودة أساسا.

هز أحمد رأسه بحركة غير ذات معنى ثم قال:

- المهم نوصل في النهاية لحاجة.

بعثت كلماته قدر من القلق في نفس الدكتور عمرو الذي أطرق برأسه شاردًا، سيكون عليه أن يضاعف تركيزه في الفترة القادمة أضعافًا مضاعفة لكيلا يترك مساحة للفشل، فهذا هو التحدي الأخير بالنسبة له، ولن يخسره بسهولة مهما كلَّفه ذلك، الأفكار تبدو مجنونة ومعقدة إلى حد ما، ولكن الأمل يظل قائمًا وعليه أن يتشبث به، يزداد شعوره بثقل الحمل المُلقى على كاهله فجأة، ولا يملك إلا أن يتمنى من الله مزيدًا من التوفيق فيما هو آتٍ.

بخطوات واثقة جادة، سار الثلاثة داخل أروقة المستشفى باتجاه حجرة المدير، حتى وصلوا إليها فاستقبلهم الأخير بحفاوة واضحة..

- أهلا وسهلا، اتفضلوا.

تولَّى الدكتور عمرو مهمة التعريف بنفسه وبأعضاء فريقه لمدير المستشفى، لم تستغرق تلك الفقرة أكثر من دقيقة واحدة، حيث بدا أن قائد المجموعة يريد الدخول في صلب الموضوع مباشرة.

- العميد محسن كلَّم حضرتك؟

- أيوة طبعا، إحنا تحت أمركم، والتعليمات اللي جات لنا طلبت إننا نتعاون معاكم لأقصى درجة.

- ممتاز جدًّا، على العموم احنا طلباتنا بسيطة، مجرد تحليلات وأشعة، متهيألي الموضوع مش هيبقى مُجهد لأن المرضى دول مقيمين عندكم أصلا.

- آه هما عندنا فعلا، منهم اتنين حصل لهم فقدان ذاكرة غالبا هيبقى مؤقت وهيخفَّوا، التلاتة التانيين في غيبوبة وأعتقد إنها هتطول شوية.

سكت مدير المستشفى للحظة، ثم ضغط الجرس المثبَّت في مكتبه فدلفت إحدى الممرضات سريعا إلى الحجرة.

- اندهي لي الدكتور نائل بسرعة.

أومأت الممرضة برأسها إيجابًا ثم انصرفت، فتابع المدير حديثه:

- ده كبير اختصاصي التحاليل في المستشفى، أستأذنكم هاطلع له برا عشان أديله فكرة عن حيثيات الموضوع.

لم تمر سوى لحظات معدودة حتى حضر الدكتور نائل فاستقبله المدير أمام باب الغرفة وبدأ التحدث معه بصوت خفيض.

ارتسمت ابتسامة تهكم على وجه أحمد، نظرت إليه ياسمين وابتسمت بدورها وقد فهمت ما يرمي إليه، بينما رمقه الدكتور عمرو بنظرة متسائلة..

- بتضحك على إيه؟؟

- أبدا، بتخيل لو كنا جايين هنا من غير توصية المباحث، كان زماننا مطرودين من بدري.

- ده أكيد.

سكت أحمد للحظة ثم قال:

- الدكتور ده بصراحة غريب جدًّا، يعني محاولش يعرف أي حاجة عن اللي احنا بنعمله ولا حتى يلمَّح بطريقة غير مباشرة، غريبة إن مستوى الفضول عنده يكون معدوم بالشكل ده.

هز الدكتور عمرو كتفيه ومطَّ شفتيه في الوقت نفسه ثم أردف..

- مش معقول تكون صدفة يعني، دي أوامر لازم ينفذها، وعدم فضوله ده أكيد بفعل فاعل، واضح إن العميد محسن عايز يوصل للنتيجة بسرعة من غير دوشة، وواضح كمان إنه كان فيه تهديد بالعقاب لو حصل أي مخالفة لتعليماته.

قطع دخول الدكتور نائل حديث الدكتور عمرو الذي تعلقت عيناه بالوافد الجديد، رجل خمسيني أصلع يرتدي البالطو الأبيض ويبدو قليل

الارتباك على ملامحه، يبدو أن حديثه مع مدير المستشفى قد بث قدرًا من الهلع بداخله، إنه ذلك التأثير (الميري) الذي لا يخيب أبدًا.

- صباح الخير.

قالها الدكتور نائل بصوت مرتعش قليلا.

شعر الدكتور عمرو أن هذا القلق المبالغ فيه لن يكون في صالح المهمة، فابتسم في وجه الدكتور نائل ابتسامة مصطنعة ثم قال:

- صباح النور يا دكتور، احنا آسفين إننا جايين على غفلة كدة، بس إن شاء الله مش هناخد من وقتك كتير.

شعر الدكتور عمرو أن كلماته بعثت قدرًا من الارتياح في نفس الدكتور نائل وظهر ذلك على وجهه.

- اتفضل حضرتك، أنا تحت أمركم.

- ربنا يخليك، احنا طالبين 3 أنواع من تحليلات الدم يتعملوا للخمس أفراد اللي المدير قال لحضرتك عليهم، التحليل الأول هيكون لمستوى الهرمونات اللي بتفرزها الغدة الدرقية، وهل المستوى ده طبيعي ولا زايد عن معدلاته، ولو فيه زيادة نسبتها قد إيه بالظبط، التحليل التاني هيكون تحليل كروموسومات، وهدفه التأكد من وجود أو عدم وجود كروموسوم Y زيادة في خلايا الجسم، التحليل التالت وده أعتقد إنه أسهلهم هو تحليل لمستوى هرمون السيروتونين في الدم.

تأمَّل الدكتور نائل وجه الدكتور عمرو للحظات وهو يحاول استيعاب مطالبه وعدم نسيان تفاصيلها، الحيرة تبدو في ملامحه وعيناه تنطق بالسؤال الذي لن يتفوّه به أبدًا، ما علاقة تلك التحليلات ببعضها؟

الصمت يسود، العيون تتجمع على وجه الدكتور نائل بانتظار ردِّه، تنحنح الأخير أخيرًا ثم بدأ بالكلام:

- مفيش مشكلة، وبخصوص تحليل الغدة الدرقية، احنا هنعمل معاه تحليل إضافي لهرمون الغدة النخامية، عشان النتايج تكون أوضح وأدق.

ظهر الاهتمام على وجه الدكتور عمرو الذي أردف:

- ممكن أعرف طبيعة العلاقة بينهم؟

- علاقة قوية طبعا، الغدة النخامية بتفرز هرمون اسمه ال TSH، الهرمون ده وظيفته هي تحفيز الغدة الدرقية ومساعدتها على أداء وظايفها بكفاءة، في حالة زيادة نشاط الغدة الدرقية وارتفاع مستوى هرمونات ال T3 وال T4 اللي بتفرزها، بيصدر المخ تعليماته للغدة النخامية بخفض تحفيز الغدة الدرقية وعدم تنشيطها أكتر، وبالتالي بتقلل الغدة النخامية من إفراز هرمون ال TSH، يعني ببساطة كدة العلاقة هي علاقة تناسب عكسي بين هرمونات الغدة الدرقية وهرمون الغدة النخامية.

ظهر الفهم والاستيعاب على وجوه المستمعين، وبدا أن الدكتور نائل يفكر في بعض التحليلات المطلوبة منه لكي يُبدي ملاحظاته بشأنها، ثم قال بعد فترة من الصمت والتركيز:

- بخصوص تحليل هرمون السيروتونين ما أعتقدش إن فيه مشكلة، لكن تحليل الكرموسومات هيبقى فيه ملاحظة صغيرة، أنا عرفت إن الأبحاث اللي أنتم طالبينها دي سريّة ودي حاجة أنا معنديش مشكلة فيها، المشكلة أنكم طالبين نتايج سريعة جدا وده هيبقى شيء صعب في التحليل ده.

ظهر التساؤل الممتزج بالضيق على الوجوه، تبادلوا النظرات ثم قالت ياسمين:

- طيب ممكن نعرف السبب؟ لو المستشفى محتاجة أي تجهيزات أو معدَّات زيادة احنا ممكن نكلم المباحث ونحاول نتصرف.

هز الدكتور نائل رأسه بهدوء ثم أردف:

- إطلاقا يا فندم، مش مسألة إمكانيات خالص، المشكلة في طبيعة التحليل نفسه، مبدئيًا التحليل ده بيتعمل بس على خلايا كرات الدم البيضا لأن خلايا كرات الدم الحمرا مافيهاش نواة، بناخد خلايا كرات الدم البيضا دي ونحطها في وسط غذائي مناسب عشان نساعدها على الانقسام، وبنختار وقت معين أثناء نمو الخلية عشان نقدر نميز الكروموسومات بسهولة، والوقت دة عادة مبيقلش عن 3 أيام وأحيانا أكتر، وبعد تمييز الكروموسومات بيتم عزلها تماما من نواة الخلية وبنعالجها باستخدام صبغات معينة، وبعد كدة بناخد صور ميكروجراف للكروموسومات، ودي تعتبر آخر مرحلة، وطبعا تحليل الشذوذ الكروموسومي اللي طلبتوه بيكون في الكروموسوم الجنسي XY.

ظهر قدر من التجهم على وجه الدكتور عمرو، لم يكن بحاجة لسماع ذلك الشرح العلمي المستفيض الذي لن يفيده شيئا، فالمهم هو النتيجة النهائية على أيّة حال، لم يمنعه ذلك من إظهار الامتنان للدكتور نائل على وقته وسعة صدره..

- متشكرين لحضرتك جدا دكتور نائل، كنت بسأل لو ينفع حضرتك تسحب العينات النهاردة على أساس نكسب وقت يعني؟

هز الدكتور نائل كتفيه ببساطة وقال:

- مفيش أي مشكلة، نسحبها دلوقتي حالا، أي طلبات تانية؟

للمرة الثانية يرمقه الدكتور عمرو بنظرة امتنان..

- عاجزين عن الشكر يا فندم.

ينهض الدكتور نائل من مقعده ويغادر الغرفة بهدوء، سرعان ما يدخل مدير المستشفى إلى الغرفة ويتساءل بشيء من اللهفة..

- ها يا جماعة، الأمور ماشية كويس؟ عرَّفتوا الدكتور نائل كل طلباتكم؟

ابتسم الدكتور عمرو لرؤية تلك الحماسة المبالغ فيه جدا..

- آه تمام، الدكتور نائل قام بالواجب وزيادة.

ظهر الارتياح على ملامح المدير وتهلّلَت أساريره، فأسرع أحمد يقول:

- واضح إن حضرتك نسيت إننا طلبنا أخصائي أشعة كمان؟

سرعان ما ظهر الهلع على ملامح المدير وهبَّ واقفا بانزعاج:

- لا أبدا والله، هاندهله حالا.

قالها وغادر المكتب بخطوات أشبه بالركض.

علت الابتسامة الوجوه للحظة، ثم قالت ياسمين بعتاب وهي توجه حديثها نحو أحمد:

- حرام عليك والله.

أطلق أحمد ضحكة مفتعلة وقال:

- يا ستي احنا معانا سلطة مؤقتة ولازم نستغلها، بس أهم حاجة الراجل دة ميشوفش وشنا بعد كدة.

أطلقوا جميعًا الضحكات مرة أخرى، ثم توقف الضحك بغتة حين دلف الدكتور أشرف اختصاصي الأشعة إلى الغرفة.

- صباح الخير يا جماعة.

ردَّوا جميعًا التحية، ثم أخذوا يحدَّقون في وجه الدكتور أشرف الذي بدا واثقًا من نفسه مبتسمًا وكأن تنبيهات مدير المستشفى لم تُثر حفيظته، أخذ هو الآخر يتأملهم بدوره للحظة ثم بدأ بالحديث بشكل عملي:

- ممكن أعرف نوعية الأشعة المطلوبة بالظبط؟

كان يوجَّه حديثه نحو الدكتور عمرو باعتباره أكبر الموجودين سنًّا ومن الواضح أنه قائد المجموعة، بدا شيء من الارتباك على وجه الأخير وحوَّل بصره سريعا تجاه ياسمين وأشار لها بيده أن تبدأ الحديث باعتبارها ملمَّة أكثر بتلك الجزئية تحديدًا، أومأت ياسمين برأسها متفهِّمة، ثم عدَّلت من جلستها لكي تصبح في مواجهة الدكتور أشرف مباشرة، ثم أردفت:

- مبدئيًّا حضرتك احنا عايزين نعمل أشعة إكس على المخ، وتحديدًا على الفص المركزي بالذات، عشان نتأكد من وجود أو عدم وجود أي مجموعات عصبية في المنطقة دي، هل فيه أي مشاكل في النوع دة من الأشعة؟

ثبَّت الدكتور أشرف بصره عليها للحظة، ثم هز كتفيه وقال:

- بسيطة، هو طلب غريب وغير معتاد شوية لكنه سهل يعني.

- متهيألي الكتلة العصبية في المكان ده بتظهر بسهولة في الأشعة وبيبقى لونها غامق شوية؟

- بالظبط.

ظهر الارتياح على وجه ياسمين وسكتت للحظات، بينما ظهر قليل من التعجب على ملامح الدكتور أشرف.

- بس كدة؟؟

سألها الأخير.

أسرعت ياسمين تستدرك:

- لا لا طبعا لسة، حضرتك سمعت قبل كدة عن حويصلة (الأميجدالا) اللي موجودة في المخ؟

قطب الدكتور أشرف حاجبيه وأطرق في التفكير لبرهة، ثم بدا وكأنه يحاول أن يتذكر شيئا ما بصعوبة:

- الاسم دة مش غريب عني، متهيألي كنت درست حاجة عنها أيام الكلية، هي ليها علاقة بمرض الصرع؟؟

- أيوة يا فندم بالظبط، الأميجدالا بيزيد نشاطها بشكل ملحوظ في حالات وجود نشاط كهربائي غير طبيعي، زي حالات الصرع.

- أيوة أيوة افتكرت، معلش بقى الواحد مخلص كلية بقاله أكتر من عشرين سنة.

ابتسمت ياسمين ابتسامة مفتعلة ثم تابعت:

- بعد إذن حضرتك كنا عايزين نعمل أشعة رنين مغناطيسي على المخ عشان نعرف هل فيه خلل معين في وظيفة الحويصلة دي ولا لأ، بمعنى أوضح كنا عايزين نتأكد من إن نشاط (الأميجدالا) طبيعي ومش أعلى من المعدل المقبول.

ظلَّ الدكتور أشرف صامتا ولم يرد، ثم تغير وجهه فجأة وقال بشيء من الحدة:

- أنا بصراحة أول مرة أسمع عن الحاجات العجيبة دي، أنا فهمت إني أنفذ طلباتكم بدون نقاش ودي حاجة هاعملها لأني مجبر، بس أنا شايف إن من حقي -أدبيًّا- إني أفهم.

ظهر الوجوم على ملامحهم، وهمَّ أحمد بالرد عليه بالحدة نفسها ولكن الدكتور عمرو سارع باحتواء الموقف بذكاء:

- بص يا دكتور أشرف، دي أبحاث احنا بنعملها لغرض معين، والغرض ده مينفعش يبقى معلن لأنه بيمس الأمن القومي للبلد.

ظهر الاندهاش على وجه الدكتور أشرف واتسعت عيناه ثم قال:

- للدرجادي؟؟

- طبعا، وده اللي خلى الجهات الأمنية تتدخل بالشكل الواضح ده عشان تقدر تمنع أي تسريبات تحصل للأبحاث، وكمان عشان تسهل أي مشاكل أو صعوبات ممكن تعطِّل استكمالها.

بدا الردَّ مُرضيًا للدكتور أشرف إلى حد ما، فهدأت ثورته تدريجيًّا، تمر لحظات من الصمت البطيء ثم يبادر الدكتور أشرف بالحديث باقتضاب:

- طيب، ربنا يوفقكم.

قالها وهمَّ بالمغادرة فأسرع الدكتور عمرو يسأله عن النقطة الأهم:

- ممكن أعرف هنستلم النتايج امتى؟؟
- يومين بس إن شاء الله، بعد إذنكم.
- اتفضل.

انصرف الدكتور أشرف وتبادل الثلاثة النظرات المتفائلة، فالأمور تسير على نحو جيد بدون أي معوقات أو مطبات صناعية، يتولد شعور بداخلهم بأن مهمتهم قد انتهت في هذا المكان، فينهضون من مكانهم في وقت واحد استعدادا للمغادرة، يتزامن ذلك مع عودة مدير المستشفى لحجرته مرة أخرى..

- مش معقول يا جماعة، أنتم لسة ما شربتوش حاجة.

- معلش مرة تانية.

ردَّ الدكتور عمرو بابتسامة صافية ثم أردف:

- شكرًا جزيلًا لحضرتك على كل حاجة، ومعلش أخدنا من وقتك كتير.

- لا لا أبدا، المهم تكونوا عرَّفتو الدكتور نائل والدكتور أشرف بكل الفحوصات المطلوبة، وأنا واثق إنهم هيعملوا كل اللي يقدرو عليه.

- إن شاء الله.

كاد الدكتور عمرو أن يلقي التحية على الرجل لينصرفوا جميعًا، لولا أنه تذكر أمرًا ما فاستدرك سريعا..

- معلش يا فندم فيه نقطة معينة أنا نسيتها.

- ولا يهمك، خير؟؟

- هنحتاج نعمل رسم مخ للاتنين اللي فقدوا الذاكرة بس، ومش مهم التلاتة التانيين، عندكم جهاز EEG؟

- أيوة موجود، بس اشمعنا رسم المخ بالذات اللي مش هيتطبق على الخمسة كلهم؟

ابتسم الدكتور عمرو بحرج ولم يرد، شعر مدير المستشفى فورًا بعدم رغبته في الإفصاح عن السبب، فقرر أن يغيَّر دفّة الحديث ولا يتوقف كثيرا عند هذه النقطة..

- خلاص اتطمن تماما، بإذن الله لما تيجي المرة الجاية هتلاقي رسم المخ اتعمل ونتيجته جاهزة.

- أنا عاجز عن الشكر يا فندم.

- العفو على إيه بس، مع ألف سلامة.

- الله يسلمك.

غادر الثلاثة العرفة تباعًا، لم ينتظر أحمد أكثر من خمس ثوانٍ حتى بادر بسؤال الدكتور عمرو بلهجة يملؤها الفضول:

- ليه حضرتك استبعدت التلاتة اللي عندهم غيبوبة؟

ابتسم الدكتور عمرو ثم أردف وهو يتابع السير:

- من الأسباب العلمية للاضطراب السيكوباتي يا أحمد هو عدم نضج قشرة المخ أو وجود نوع من القصور فيها، ومن علامات القصور ده ظهور موجات المخ الكهربية ثيتا ودلتا في حالة اليقظة، الموجات دي مش بتظهر في الأحوال العادية إلا في حالة النوم العميق وبيبقى معاها موجات تانية اسمها الموجات المغزلية، أما ظهورها في رسم المخ بالنسبة للمريض المستيقظ فده بيعتبر علامة واضحة على عدم النضج الانفعالي، وعدم استقرار السلوك

بشكل عام، مع العلم إن ظهور الموجات دي في رسم المخ للأطفال المستيقظين هو شيء طبيعي ومنطقي جدًّا لأن قشرتهم الدماغية بتكون لسة في طور النمو، لكن تواجدها بالنسبة للبالغين بيدل على شذوذ موجات المخ وبيزود من احتمالات ارتكاب أفعال أو تصرفات غير سوية.

- يعني حضرتك مطلبتش تعمل رسم مخ للتلاتة اللي في غيبوبة لأن الموجات دي هتبقى موجودة في الرسم بصورة طبيعية وظهورها مش دليل على وجود أي شذوذ؟

هز الدكتور عمرو رأسه هزة خفيفة كدلالة على أن ما يقوله أحمد صحيحٌ ولكن ليس بنسبة مائة بالمائة ثم قال:

- كل مرحلة من مراحل النوم بيميزها ظهور نوع معين من الموجات الكهربية، ممكن تبقى الموجات ثيتا ودلتا موجودة أو لا، حسب مرحلة النوم نفسها أو حسب طبيعة الغيبوبة عند المريض، لكن أنا مش هادخل نفسي في تجارب ممكن توصلني في النهاية لنتايج غلط، خلينا مع الصاحيين أضمن.

وصل الثلاثة أخيرًا إلى سيارة الدكتور عمرو فاستقلوها سريعًا، مكان واحد يجمعهم ومهمة واحدة ومصير واحد، يسعون معًا إلى النجاح بكل ما أوتوا من قوة، وسلاحهم ما يمتلكونه من علم ومعرفة، ومصدر قلقهم الدائم هو المستقبل وما يخبئه لهم من مفاجآت وصدمات.

أنهى الدكتور عمرو تناول غداءه سريعا، ثم أخبر زوجته أنه سوف يخلد للنوم لكونه يشعر بالإجهاد، بدا عليها الاستغراب الشديد وظهرت علامات الاستفهام على وجهها جليَّة، فلم يكن من عادته أبدا أن ينام خلال النهار حتى في ذروة شعوره بالإرهاق والتعب، وكان حدسها في محله، فلم يكن النوم في ذلك التوقيت إلا مجرد حيلة ابتكرها لكي ينفرد بنفسه قليلًا ويحاول الابتعاد عن الأحاديث العادية أو الدردشة التي لا طائل منها، لطالما كان من أولئك الأشخاص الذين لا يستطيعون التصرف بصورة طبيعية إذا كانت عقولهم منشغلة بشيء ما، وشعر أنه من الأفضل أن ينعزل الآن لكيلا تلحظ زوجته شروده وانشغاله وتبدأ حفلة الاستجوابات.

اتكأ على جنبه الأيمن كعادته ثم أغمض عينيه، ليس بغرض النوم إطلاقا وإنما من أجل الحصول على قدر من الاسترخاء وصفاء الذهن، بدأ عقله يسترجع أحداث القضية منذ بدايتها رويدًا رويدًا، كل التفاصيل والأحاديث والمقدمات والنتائج ، يبحث عقله بين الدهاليز والخبايا عن أيّة حلقة مفقودة أو ثغرة يمكن النفاذ منها، وأسئلة كثيرة تتوالى على عقله فتصيبه غمًّا بغم، هل أخطأ منذ البداية بقبول المساعدة في هذا التحقيق؟ هو رجل أكاديمي لا يعرف شيئا عن الجرائم أو المجرمين وغيرها من الأمور البوليسية، يراوده شعور عارم بلوم الذَّات حين تأتيه تلك الفكرة، ما فائدة كل ما تعلمه إذن إن لم يتم تطبيقه في الواقع العملي؟ من غير المعقول أن يكون قد قضى حياته في تعلُّم مبادئ ونظريات جوفاء بل وتدريسها لغيره كذلك، هل أخطأ في وضع خطة العمل

التي لم تؤدّ إلى أيّة نتيجة إيجابية حتى الآن؟ أنجح في تكييف نظريات علم النفس الجنائي على هذه الحالة المعقدة أم كان بالإمكان أفضل مما كان؟ هل كان قراره صائبا عندما وافق على اقتراح ياسمين بتطبيق النظرية البيولوجية ضاربًا بكل الانتقادات التي وُجّهت للنظرية عرض الحائط؟ أكان شغفه البحثي وفضوله العلمي هو المسيطر عليه حين اتخذ هذا القرار أم أنه يبحث عن الحقيقة فعلا؟ أسئلة لا تنتهي تتتابع على رأسه بسرعة وبدون رحمة وتصيبه بنوع من التشتت، يبدو أن الجلوس وحيدًا لم يكن الحل الصائب، ينهض من سريره بنشاط ويذهب ليجلس مع زوجته بالصالة.

*****

نظرة القلق تتولد في عين زوجته وقد بدأت تشعر بتغيّر ما في تصرفاته، تحاول أن تتغلب على هذا الشعور وتبتسم له بحنان..

- إيه يا حبيبي، منمتش ليه؟

هز كتفيه وأجاب باقتضاب:

- مجاليش نوم.

رمقته زوجته للحظة بنظرة ارتياب ثم حولت بصرها تجاه التلفاز، ثوانٍ معدودة ثم عادت تسأله:

- أخبار الشغل إيه النهاردة؟

يرد وعينه مثبته على التلفاز دون أن ينظر تجاهها:

- آه تمام.

مشاعر الشك والقلق تكبر بداخلها أكثر فأكثر، تعاود النظر نحو التلفاز وتسترق النظر إليه كل فترة، لماذا يبدو شاردًا واجمًا إلى هذا الحد؟ أما هو، فيدرك جيدًا ما تشعر به من عدم ارتياح لرؤيته بهذه الصورة، يشعر بنظراتها المختلسة إليه وخوفها من تجاذب أطراف الحديث معه وهو في هذه الحالة، ورغبتها الشديدة في سؤاله عن ذلك الأمر الذي يشغله ويؤرقه، تلك الرغبة المصحوبة بقدر من التردد والخوف من ردة فعله الغاضبة، شعور بالشفقة ينتابه تجاهها، هو لا يريد أن يزعجها على أيّة حال، يقرر في النهاية أن يحاول أن يبدو طبيعيًّا..

- أمال فين البنات؟

سألها بلهجة مرحة.

- هيرجعوا متأخر النهاردة، روان عندها كورس وندى في السينما مع أصحابها.

اتسعت عيناه فجأة، يبدو أن هناك خطط مفاجئة:

- إيه ده، معقول؟ يعني احنا هنفضل قاعدين كدة من غير محرم؟

نظرت إليه باندهاش غير مصدقة لما قال، ثم حوَّلت بصرها تجاه التلفاز والابتسامة تتسع على شفتيها.

يمدَّ يده إلى الريموت ويطفئ التلفاز ليجبرها على النظر إليه، فترمقه بدلال وقد فهمت تماما ما يرمي إليه، تنهض من مكانها ثم تتجه بخطوات متثاقلة نحو الغرفة.

أما هو فيتناسى مؤقتا كل ما هو متعلق بالمهمة، ويبدأ الاستعداد على قدمٍ وساق للمهمة الأصعب.

*****

أغلقت ياسمين الخط بعد مكالمة قصيرة مع خطيبها، تلك المكالمة الروتينية المعتادة التي لا تتناول أبدًا أي حديث شائق أو مثير للاهتمام، الأحاديث المملة نفسها عن العمل أو عن الأحداث اليومية التي مرَّت بكلاهما، انتهت سريعا مرحلة الاحتفال والفرحة المصاحبة للخطبة، وبدأ كل منهما يحاول استكشاف الآخر، مازالت لا تشعر تجاهه بأي شيء على الإطلاق، ومازالت تصاب بالغيظ من عدم قيامه بأي محاولة للاقتراب منها أو جذب انتباهها أكثر، مع ملاحظة أنها لم تُظهر له أي قدر من الضيق بسبب رسميته المبالغ فيها، بل وتتعامل معه بمنتهى الإقبال والتجاوب، لكن شيئا ما بداخلها يخبرها بأن الأمور ليست على ما يرام، هل هي متسرعة حقًّا؟ لم يمر على الخطبة سوى أيام معدودة، ربما كان الأمر يحتاج مزيدًا من الوقت حتى تتولد بينهما تلك المشاعر التي تتمناها، ربما كان خجولًا أو كتومًا للدرجة التي يحتاج فيها لمزيد من الوقت كي يفاتحها في تلك الأمور، لم تبدُ هذه الفكرة مقنعة تمامًا بالنسبة لها، خاصة بعدما شاهدت أسلوبه المرح المتفتح وطريقته اللبقة في الحديث مع الآخرين، هو بالتأكيد لا يعاني من أي مشكلات في الاختلاط بالجنس الآخر أو من قلة الخبرة في التعامل مع النساء، لماذا إذن تبدو علاقتهما بهذا الجمود؟

دارت في رأسها فكرة بعثت في نفسها قدرًا مضاعفًا من الضيق، هل من الممكن أن يكون قد اختارها بعقله وليس بقلبه؟ أو أن يكون قد استقر رأيه عليها بناءً على كونها الأنسب من حيث المواصفات؟ فتاة جميلة من عائلة محترمة تعمل بوظيفة مرموقة، من المؤكد أنها ستكون زوجةً وأمًّا مثاليةً كما أنها ستحافظ للأبد على مظهره الاجتماعي، أهذا هو السبب الحقيقي فعلا أم أنه قد شعر تجاهها بشيء مختلف دفعه للتقدم لخطبتها؟ تحاول أن تُصفي ذهنها وتدرس الأمور بعقلانية وعدم اندفاع، مازال الوقت مبكرًا على تلك الأحكام المسبقة، ومازال هو يحتاج لفرصة أخرى لإظهار نواياه الحقيقية، لكن البدايات تبدو غير مبشرة إلى حد ما، هي ليست ساذجة للدرجة التي ترغب فيها في سماع كلمات الحب بعد أيام من الخطبة، لكنها على الأقل تنتظر تلميحًا ما أو كلمة مختلفة عن باقي الكلمات التي تسمعها طيلة اليوم، كلمة تجعل قلبها يدق دقّة مختلفة ويفتح الباب على مصراعيه لمشاعرها الحبيسة لكي تتدفق، حتى الآن مازالت تبحث عن ذلك الشعور بالانجذاب الذي انتظرته طويلا ولكن دون جدوى، رغما عنها يتولد بداخلها قدر من الإحباط لكونها لم تشعر حتى الآن بأي شيء مميز.

تستنشق نفسًا عميقًا وتنفض عن رأسها تلك الخواطر، تحاول أن تفكر في أي شيء آخر فيذهب عقلها لا إراديًّا لذلك التحقيق الذي تشترك فيه مع أحمد والدكتور عمرو فترتسم على شفتيها ابتسامة رغما عنها، تلك المهمة قد أضفت على حياتها قدرًا من الإثارة والتشويق، خاصة بعدما تمت الموافقة على اقتراحها الأخير وبدءوا تطبيق النظرية البيولوجية غريبة الأطوار، تتخيل للحظة لو أنهم

استطاعوا الوصول للجاني عن طريق صفاته الجسمانية وتم إثبات صحة هذه النظرية فعلا، سيكون ذلك أكبر الاكتشافات العلمية على الإطلاق لهذا العام، وستصير المبادئ البيولوجية مفعلة في كل تحقيقات الجرائم وستصل شهرتهم للآفاق، ترى هل يمكن لهذا الخيال أن يصير واقعًا ملموسًا؟ سيكون ذلك هو الحدث الأكثر تميّزًا بالنسبة لها على مدار حياتها، وسيمحو بلا شك خيبة الأمل التي أصابتها مؤخرًا بعد تلك الخطبة عديمة الطعم والرائحة.

*****

عليه أن يتصرف بطريقة عادية ولا مفر من ذلك، هكذا حدَّث أحمد نفسه عندما دخل حجرة المعيدين في اليوم الأول له بعد انتهاء الإجازة، يسعده ترحيب زملائه به ويرد عليهم التحية بامتنان، ولكنه لا يستطيع منع ما يشعر به من توتر، سيكون عليه أن يبذل مجهودًا مبالغًا فيه لكي يبدو أمامها طبيعيًّا، ولكن ماذا لو حاولت التحدث معه على انفراد؟ كان ذلك مستحيلًا فيما مضى ولكن تلك المهمة قربت المسافات بينهما كثيرًا وفتحت مجالات أكبر للحديث، لماذا يشعر بهذا الارتباك الذي يزلزل كيانه حين يواجهها منفردًا؟ مع ملاحظة أنه يتصرف بشكل تلقائيّ جدا حين يكون الدكتور عمرو حاضرًا، هل مازال عقله لم يستوعب بعد أنها لن تكون له ومازال يحيا في أحلام الماضي؟ على الرغم من عِلمه بخطبتها وحضوره لحفل الخطبة بنفسه، لكنه لايزال يحبها ولن يكف عن ذلك، من الصعب جدًّا أن تختفي كل تلك المشاعر الصادقة بضغطة

زر، وعلى الرغم مما شعر به للحظات في أثناء حفل الخطبة من السعادة لكونها سعيدة، لكنه سرعان ما أدرك بعد ذلك بجزع أنها قد ضاعت من بين يديه للأبد.

يشعر باقتراب حضورها، لا توجد أي بوادر أو علامات تدل على مجيئها لكن الشعور يراوده بقوة، ربما يخلق اشتياقه لها أوهاما يحولها عقله الباطن إلى حقائق، أو ربما يكون لحضورها رائحة ما تشعر بها حواسه وتميز تأثيرها، أين ذلك الشخص الذي كان يودَّ أن يبدو طبيعيًّا؟ ومتى تنتهي تلك اللذة الغبية التي تنتابه لمجرد وجوده بقربها؟ الصراع بين قلبه وعقله لا يتوقف ولا يجني منه سوى مزيد من الإرهاق والحيرة، يستنشق نفسًا عميقًا ويشرد ببصره، أي مأزق وضع نفسه فيه عندما أطلق لمشاعره العنان ثم فقد السيطرة عليها، وأي ظلم أوقعه على نفسه عندما أدرك أنه يحبها ولم يَبُح.

يسمعها تُلقي التحية على جميع الزملاء فيرفع بصره لا شعوريًّا باتجاه الصوت، لا جديد يذكر، هي بجمالها المعتاد بملابسها الأنيقة البسيطة بتلك البسمة الهادئة التي أدمنها، لحظة واحدة كانت كافية جدًّا لكي يدرك أنه حتمًا سيفشل، سيفشل في التصرف بصورة طبيعية وسيفشل في نسيانها أو اعتبارها زميلة أو حتى صديقة، مشاعره تجاهها لم تخبُ إطلاقا، بل بالعكس، وكأن ابتعادها عنه في الفترة الماضية قد أضاف لتلك المشاعر مزيدًا من التأجّج، يقولون بأن الممنوع مرغوب ويبدو أن تلك القاعدة تنطبق على وضعه الغريب الشائك، يعود ارتباكه لمجرد وجودها وتعود النظرات المسترقة نفسها لتنبعث من عينيه وبكثافة أكبر، تتعلق عيناه بتفاصيل وجهها بلهفة، تطرب أذناه لسماع

صوتها العذب الذي اشتاقه كثيرا، والابتسامة البلهاء نفسها ترتسم على وجهه لرؤيتها تضحك أو تبتسم، تأثيرها الساحر عليه لم يتغير وكأن شيئا لم يكن.

راوده شعور مفاجئ بالخوف، الخوف من الانسياق وراء مشاعره بلا هدف، الخوف من التعلق بالأوهام الواهية، الخوف من عواقب سلك طريق مسدود، والخوف المعتاد من أن يلحظ أحد زملائه ما يبدو عليه من هيام وولهٍ، حتى لو كان ذلك مقبولًا فيما مضى فلم يعد كذلك الآن، الخوف من عدم القدرة على التركيز أكثر في عمله بعدما وصل لتلك المكانة، لا مفر من الابتعاد إذن، هكذا حدَّث نفسه، وشعر بكثير من القبول بداخله تجاه هذا الاقتراح، هو حلٌّ مُرضٍ لجميع الأطراف بلا شك، أن يبتعد عنها للأبد ويبدأ في مكان جديد، هذا هو الحل الوحيد لجعل مشاعره تجاهها تنطفئ تدريجيًّا، هو يؤمن تماما بأن البعيد عن العين سيصير بعيدًا عن القلب مهما كان مقدار محبته، ومادام أنه لا يراها باستمرار فينساها آجلا أو عاجلا، بدا ذلك الحل مقبولًا جدًّا بالنسبة له خاصة مع إمكانية انتقاله للعمل بأيّة جامعة أخرى، سيكون عليه فقط أن يعتاد على المكان الجديد ويحاول إنشاء علاقات مع الزملاء وهي ليست بالمهمة الصعبة.

عشَّشت الفكرة برأسه وعزم على البدء بتطبيقها في أسرع وقت، ولكنه تذكر تلك القضية التي يساعد في التحقيق فيها وما تتطلبه من مجهود وتركيز، فقرر أن يؤجِّل تلك الخطوة حتى ينتهي من تلك المهمة ويستعيد صفاء ذهنه، تبدو فرصة مناسبة كذلك للتأكد من استمرار ياسمين في الخطبة وعدم حدوث أي مشكلات تعوق استمرارها، هو لا يتمنى لها أي مكروه بالتأكيد، لكن من

الوارد ألا تتفق مع خطيبها لأي سبب، كثير من الخطبات هذه الأيام تنتهي لوجود خلافات سواء أكانت مادية أو غير ذلك، إذن فمازال هناك بصيصٌ من الأمل عليه أن يتمسك به، ولكن المهم أن يقتنص الفرصة سريعًا إذا سنحت له هذه المرة، وألا يكرر ذلك الخطأ الذي مازال يندم عليه حتى الآن.

*****

بدا قدر كبير من التوتر والترقب على الوجوه بانتظار حضور الدكتور نائل لغرفة المدير ومعرفة نتيجة التحليلات، يراودهم شعور بأنهم قد انتظروا دهرًا على الرغم من أنه لم تمر سوى خمس دقائق فقط منذ وصولهم، لا أحد يملك الطاقة اللازمة لكي يحاول تخفيف حدة التوتر أو تلطيف الأجواء، يتحاشى كل منهم النظر للآخر لكيلا تنتشر عدوى القلق أكثر وأكثر، يسمعون أخيرًا ذلك الصرير المميز لفتح باب الحجرة فيلتفت الثلاثة نحو مصدر الصوت في آن واحد، يظهر الدكتور نائل وعلى شفتيه ابتسامة دبلوماسية ويلقي عليهم التحية، يرد الثلاثة التحية بصوت خفيض ونظرات الفضول تكاد تقفز من عيونهم، يشعر هو بذلك فيبدأ الحديث في صلب الموضوع بصورة مباشرة:

- طيب يا جماعة واضح جدا إنكم مستعجلين، هنبدأ بنتايج تحليل الكروموسومات اللي كانت مفاجأة كبيرة بالنسبالي.

سكت الدكتور نائل للحظة وابتلع ريقه، العيون تكاد تحرج من محاجرها من شدة الترقب، يتابع:

- مبدئيًّا التحليل ده من التحليلات المعقدة جدا، بصراحة أنا كنت بعمله وجوايا حالة من عدم الرضى، لأني كنت متأكد بنسبة كبيرة إني مش هلاقي أي مريض عنده الكروموسوم Y الزيادة في خلايا جسمه بسبب ندرة النوع ده من شذوذ الكروموسومات، أو على أقصى تقدير ممكن تطلع عينة واحدة إيجابية من الخمس عينات، لكن الشيء الصادم بقى إن نتيجة التحليلات الخمسة طلعت كلها إيجابية، وإن الخمس مرضى اللي اتعمل لهم التحليل عندهم المتلازمة النادرة دي، بصراحة أنا مصدقتش النتيجة في البداية ولسة مش مصدقها، لدرجة إني شكيت إني ممكن أكون غلطت في أي خطوة من خطوات التحليل، وده اللي خلاني اطلعت على أهم المراجع العلمية اللي اتكلمت عن النوع ده من التحليلات وطابقت إطلاعي بالخطوات العملية اللي اتنفذت فعلا، ساعتها اتأكدت تماما من إن النتيجة سليمة بنسبة 100٪ وإن مفيش أي جوانب قصور في أي مرحلة من مراحل التحليل.

يتبادل الثلاثة النظرات بشيء من التحفز، مازال الوقت مبكرا على الشعور بالإحباط أو الحكم على المهمة بالفشل، يستطرد الدكتور نائل دون أن يمنحهم الفرصة لأي استفسار:

- تاني تحليل كان مطلوب هو تحليل مستوى هرمون الغدة الدرقية لمعرفة مدى وجود أي زيادة أو نقص في نشاطها، وبعكس التحليل اللي فات تماما، ظهرت النتيجة سلبية لكل العينات وكانت المحصلة النهائية للتحليل إن الغدة الدرقية للخمس مرضى بتعمل بشكل طبيعي جدا، ومفيش أي زيادة أو

نقص أو اختلال من أي نوع في مستوى الهرمونات اللي بتفرزها، وده اللي أكده تحليل هرمون الغدة النخامية اللي كان في مستوياته الطبيعية برضو.

تزداد حدة التوتر على الوجوه، ويبدو أحمد أكثرهم توترًا وعصبية، من المؤكد أنه يشعر الآن بأن تحفظاته على تطبيق هذه النظرية كانت صائبة إلى حد كبير..

- التحليل الأخير هو تحليل هرمون السيروتونين، التحليل ده برضو كان في مستواه الطبيعي بالنسبة لكل الحالات باستثناء مريض واحد مصاب بغيبوبة اسمه (أحمد الدالي)، المريض ده ظهر عنده انخفاض حاد جدا في مستوى السيروتونين بالنظر للمعدلات الطبيعية، الطبيعي إن مستوى الهرمون ده في الدم بيتراوح بين 101 إلى 283 نانو جرام لكل ملليلتر، لكن نتيجة التحليل بالنسبة ل (أحمد) كانت 73 نانو جرام بس، طبعا الانخفاض ده بيدل على وجود حالة مرضية، ومعلوماتي إن أغلب المرضى النفسيين ومرضى الاكتئاب بتكون نسبة السيروتونين منخفضة جدا عندهم.

سكت الدكتور نائل وبدا أنه قد أنهى حديثه، يتبادل الدكتور عمرو مع ياسمين نظرة ذات معنى، ويتذكرا في اللحظة نفسها ما قاله زملاء (أحمد الدالي) عن عصبيته وانفعاله الزائد والمستمر بلا سبب، من المؤكد أن ذلك التحليل الأخير سوف يتم وضعه في الحسبان بانتظار ما سوف تسفر عنه نتائج الأشعة المطلوبة.

- أتمنى أكون قدرت أفيدكم بحاجة.

يتمتم الدكتور نائل وعلى شفتيه ابتسامة مليئة بالحرج بفعل ما يراه على وجوههم من حيرة.

يستفيق الدكتور عمرو من أفكاره ليرد:

- جدا يا دكتور، شكرًا جزيلًا.

ينصرف الدكتور نائل ويدخل الدكتور أشرف بعد فترة بسيطة من الانتظار ممسكًا بصور الأشعة، من الواضح أن مدير المستشفى قد أعطاهم تعليمات مشددة بعدم تأخير النتائج.

بدا أن الدكتور أشرف على وشك التهكم وإلقاء التعلييقات السخيفة حول طبيعة الأشعة المطلوبة والغرض منها، ولكن رؤيته ذلك التوتر الذي يكسو ملامح الحاضرين جعله يبتلع تلك الكلمات التي تقف في حلقه، ويرسم على وجهه ملامح الجدية، يتبادل معهم تحية بسيطة ثم يبادر بالحديث عن النتائج المرتقبة:

- هنبدأ بنتيجة الأشعة اللي طلبتوها عن الفص الأمامي للمخ للتأكد من وجود أو عدم وجود أي مجموعات عصبية، الأشعة بتبين وجود الكتلة دي على الفص الأمامي..

يقطع حديثه ليرفع صورة الأشعة تحت الضوء مباشرة، وتبدو تلك الكتلة الداكنة التي يشير إليها واضحة لهم جميعًا..

- وده بالنسبة لمريض واحد بس من المرضى الخمسة، المريض اسمه..

يحاول التذكر للحظة ثم يستدرك:

- آه، أحمد الدالي.

تلاقت عيونهم وقد تولدت فيها قدرٌ من الحماسة وانتعش الأمل بنظراتهم من جديد، هذا المدعو (أحمد الدالي) قد ظهر اسمه حتى الآن ثلاث مرات، من الصعب أن يكون كل ذلك مجرد صدفة، هل من الممكن أن يكون هو المجرم المنشود؟ قليل من الارتباك يبدو على ملامح الدكتور أشرف، ويبدو وكأن هناك ما يشغل تفكيره ويجعله يبدو بهذا الاضطراب، يلاحظ الدكتور عمرو ذلك فيسأله بهدوء:

- فيه حاجة يا دكتور؟ شكلك عايز تقول حاجة.

وكأن الدكتور أشرف قد تفاجأ بسؤال الدكتور عمرو، فأجفل للحظة وظل صامتًا، ثوانٍ معدودة حتى بدا وكأنه قد حسم أمره وقال:

- بصوا يا جماعة أنا معرفش بصراحة إيه الغرض من الأشعة اللي أنتم طالبينها دي، وميهمنيش أعرف، لكن فيه نقطة معينة حاسس إني لازم أقولها كنوع من الأمانة العلمية.

نظروا جميعًا إليه بتساؤل فازدادت تعبيرات التركيز والتصميم على وجهه ثم تابع:

- المجموعة العصبية اللي أظهرتها الأشعة في الفص الأمامي للمخ من الوارد جدا يكون سببها الحادثة الشنيعة اللى اتعرضلها المريض، أقصد إن المريض ده اتعرض لكسر في الجمجمة ونزيف بالمخ وده ممكن يكون عمل له بعض التليفات، يعني ممكن يكون التجمع العصبي دة من المضاعفات أو الآثار الجانبية الناتجة عن قوة الاصطدام، باختصار عايز أقول إن المجموعة العصبية دي من المحتمل إنها مكانتش موجودة عند المريض قبل الحادثة.

ظهرت الحيرة على الوجوه مرة أخرى، وكان الدكتور عمرو أول من تكلَّم:

- يعني مفيش وسيلة معينة نقدر نعرف منها إذا كانت المجموعة العصبية دي كانت موجودة أساسًا عند المريض ولا لأ؟

- للأسف حاليا مفيش، مفيش غير إننا نستنى لحد ما المريض يتعافى تمامًا ونعمله أشعة تانية، أو لو كان هو بالصدفة عمل أشعة على المخ قبل ما يتعرض للحادثة، ساعتها هنقدر نعرف إذا كانت التجمعات العصبية دي موجودة بشكل دائم ولا بصورة عرضية.

بدت تلك الحلول بعيدة عن التطبيق في الواقع وغير حاسمة، الأمر الذي أعاد خيبة الأمل مرة أخرى إلى ملامح الحاضرين.

لحظات من الصمت تمر قبل أن يبادر الدكتور أشرف بالحديث:

- أكمَّل؟؟

رفع الدكتور عمرو بصره إليه ثم تمتم بصوت منخفض وهو يومئ برأسه إيجابًا:

- اتفضل.

تنهد الدكتور أشرف بصوت مسموع ثم أردف:

- بالنسبة لأشعة الرنين المطلوبة، احنا عملناها للمرضى الخمسة، والأشعة أثبتت إن نشاط حويصلة (الأميجدالا) طبيعي لكل المرضى باستثناء (مجدي الهندي)، دة واحد من المرضى اللي فقدوا الذاكرة في الحادثة، نشاط الحويصلة بالنسبة للمريض ده كان عالي جدا لدرجة إني شكيت إنه ممكن يكون

مريض صرع، لكن لما رجعت لملفه عرفت إنه مش بيعاني من أي نوبات صرعية أو تشنجات ومش بيتعالج من أي مرض من النوعية دي.

ينتهي الدكتور عمرو ورفاقه من تدوين ملاحظات الدكتور أشرف حول نتائج التحاليل، ثم يعاودون النظر إليه فيهز كتفيه بحركة تعني أنه لم يعد هناك ما يقال.

عبارات الشكر المعتادة تُوجه للدكتور أشرف الذي يغادر الغرفة بهدوء، يتبع خروجه دخول مدير المستشفى بطريقته المميزة وحفاوته المبالغ فيها، يشعر الثلاثة بالضيق بسبب رغبتهم في مناقشة نتيجة التحاليل والأشعة على انفراد.

- أساتذتنا الكبار، منورين مرة تانية.

لم يستطع أحمد أو ياسمين التفوّه بأيّة عبارة من عبارات المجاملة، بينما رسم الدكتور عمرو على شفتيه ابتسامة باهتة.

يوجه مدير المستشفى حديثه مباشرة للدكتور عمرو قائلا:

- على فكرة احنا عملنا رسم المخ اللي حضرتك طلبته والنتيجة جاهزة، اتفضل.

يُخرج ذلك الملف الورقي من درج مكتبه ليناوله للدكتور عمرو الذي يخطفه بشيء من اللهفة ثم يفتحه ويتفحص ما فيه باهتمام بالغ، لحظات من الترقب تمر على ياسمين وأحمد وتتعلق نظراتهما بالدكتور عمرو الذي يبدو عليه التركيز الشديد، حتى ينتهي من قراءة التقرير فيغلق الملف ويضعه أمامه على المكتب وقد بدا في ملامحه قدر من الشرود والتشتت.

- معلش يا فندم لو فيها قلة ذوق، بس أنا محتاج أقعد مع فريقي عشر دقايق على انفراد.

لم يبدُ على مدير المستشفى أنه قد شعر بالضيق أو الانزعاج إطلاقا، بل رفع حاجبيه بصورة تلقائية وابتسم بمرونة ثم قال:

– طبعا، مفيش أي مشكلة خالص.

ثم غادر الغرفة بخطوات ثابتة.

لم يطق أحمد صبرًا فأسرع يسأل الدكتور عمرو بفضول عارم:

- إيه الأخبار؟

مطَّ الدكتور عمرو شفتيه ثم قال بفتور:

- ولا حاجة، الموجات ثيتا ودلتا موجودة فعلا في الرسم، بس المشكلة إنها ظهرت عند مشتبه فيه واحد هو (إبراهيم مغاوري)، كان عندي أمل ألاقيها عند (مجدي) بعد ما ظهر عنده نشاط في إفراز الأميجدالا، ساعتها كان ممكن أحصر دايرة الاشتباه فيه بالإضافة لـ(أحمد الدالي) اللي اتكرر اسمه في أكتر من نتيجة إيجابية، لكن دلوقتي حاسس بالتشتت، إيه رأيكم؟

تنكِس ياسمين رأسها للأسفل، ويبدو عليها الإحباط الشديد، تبدو الأعراض نفسها على أحمد، ولكنه لم يستطع –أدبًا– أن يتجاهل سؤال الدكتور عمرو مما اضطره للرد:

- الحقيقة يا دكتور أنا مش شايف قدامنا دلوقتي غير حل واحد، إننا نحاول نحدد أكتر صفة جسدية بتميز المجرمين عن غيرهم، يعني إيه هي الصفة اللي كان معدل تكرار ظهورها بين المجرمين هو الأعلى من بين كل

الصفات، وده من خلال دراسة التجارب اللي اتعملت في المجال دة بالتفصيل، والشخص اللي ظهرت عنده الصفة دي نحاول ندور وراه ونركز عليه أكتر، احنا كان عندنا أمل نلاقي كل خصائص المجرمين البيولوجية أو أغلبها عند شخص واحد، لكن مادام ده محصلش والفحوصات أثبتت إن كل واحد منهم عنده بيولوجيا صفة إجرامية واحدة تقريبا، يبقى المنطقي إننا نحدد وزن نسبي لكل صفة ونختار المشتبه فيه اللي عنده الصفة الأهم.

ظهر عدم الاقتناع على وجه الدكتور عمرو الذي بدا للحظة وكأنه يحاول أن يتقبل ذلك الاقتراح، ثم هز رأسه نفيًا وقال:

- صعب جدا يا أحمد، المبادئ دي كلها قايمة على الملاحظة والتجربة مش على أساس علمي واضح، بالإضافة لأن التجارب دي اتعملت على عينات عشوائية من المجرمين والعينات دي عددها مكانش ثابت في كل تجربة، يعني لو فيه صفة ظهرت بنسبة 70٪ عند مجموعة معينة وصفة تانية ظهرت بنسبة 60٪ عند مجموعة تانية، فده مش معناه إن الصفة اللي نسبتها أعلى تعتبر منتشرة أكتر من غيرها، لأننا ببساطة معندناش معلومات مفصلة عن عدد المجرمين في كل عينة.

بادرت ياسمين بالحديث هذه المرة وهي تحاول أن تتغلب على إحساسها بالضيق:

- طيب إيه رأيكم يا جماعة نختار المشتبه فيه اللي ظهر عنده أكبر عدد من الصفات؟ يعني (أحمد الدالي) مثلا ظهر عنده 3 صفات؟

هز الدكتور عمرو رأسه نفيًا مرة أخرى وبدأت علامات نفاد الصبر تبدو عليه ثم قال:

- برضو مش دليل كافي، أولًا فيه نتيجة من ال3 نتايج الإيجابية اللي ظهرت يعتبر مشكوك فيها وممكن جدًّا تكون ظهرت بصورة عرضية نتيجة للحادثة، يعني الشيء الموثوق منه إن المشتبه فيه عنده صفتين بس من أصل خمس صفات، ودي تعتبر نسبة مش كبيرة، ومقدرش أركز اهتمامي عليه أو أعتبره متهم تاني في القضية لأن فيه متهمين تانيين ظهرت عندهم صفتين برضو، إيه بقى اللي بيميزه عنهم؟

حاولت ياسمين جاهدة أن تبحث عن رد ما فلم تستطع، كان حديث الدكتور عمرو منطقيًّا إلى درجة كبيرة، مع العلم أنه أكثرهم رغبة في الوصول لحل بديل وعدم الاستسلام، ولكن ذلك لم يجعله يتخلى عن الحياديِّة والموضوعية في التفكير، فالتسرع لن يقوده سوى لحل خاطئ ولن يجني منه سوى مزيد من الإخفاق.

اللحظات تمر بطيئة، تبدو علامات الوجوم والحيرة على الوجوه، الأمر لا يحتاج لكثير من الذكاء لمعرفة أن المهمة قد باءت بالفشل، وأن كل المجهود المضني الذي قدموه لم يسفر عن أيّة نتيجة مرضية، مشاعر متضاربة تراودهم في التوقيت نفسه، أحمد وياسمين يشعران بالتقصير تجاه الدكتور عمرو وبأنهما السبب الرئيس فيما يشعر به الآن من خذلان، وبأنهما على الرغم من محاولاتهما المستمرة لإيجاد طرف خيط إلا أنهما لم يكونا عند حسن ظنه في نهاية الأمر، الشعور نفسه يراود قائد المهمة، ولكن من وجهة نظره، يشعر بأنه لم يكن قائدًا

جيدًا للفريق، ولم يستطع أن يوظف إمكانيات أحمد وياسمين الكبيرة ولم يستفد منها بالشكل المطلوب، كذلك كان عليه ألا ينساق وراء فكرة ياسمين بتطبيق مبادئ النظرية البيولوجية، وهو يعلم تمامًا ما يحيط بها من انتقادات ولغط، هو يعرف جيدًا ما سيواجهه من توبيخ سيصل لحد الإهانة من العميد محسن، ولكن لم يكن ذلك ما يؤرقه، وإنما هو ذلك الشعور المرير بالفشل، ذلك الشعور الذي لم يتقبله طوال حياته، وكافح كثيرًا لكي يتجنب الشعور به ولو لمرة واحدة، ها هو يعصف به الآن حاملًا مع مزيدٍ من مشاعر الندم ولوم الذات، لا شك أن الأيام القادمة لن تكون محتملة على الإطلاق بالنسبة له.

يغادر مبني المباحث في هدوء، مظهره الهادئ الرزين لا يعبر إطلاقا عن ذلك البركان الثائر بداخله، كلمات العميد محسن القاسية الحادة ترن في أذنيه، يحاول أن يتجنب التفكير فيها أو تذكَّرها، ولكنها تبدو كما لو كانت ملتصقة برأسه، يقود سيارته بعينين لا تريان، ويظهر في ملامحه قدر هائل من العبوس والتجهم، قدر يعبر عن حالته النفسية حاليًا بكل وضوح، يحاول من آن لآخر أن يخرج من تلك الحالة، وأن يستمع لذلك الصوت الذي ينصحه بأن يهوَّن على نفسه، وبأن الأمر لا يستدعي كل هذا القدر من الحزن وتأنيب الضمير، هي من الأساس قضية معقدة، ومن المستحيل تقريبا أن يتم حلها مع وجود كل تلك التفاصيل الدقيقة والتضاربات النادرة، تناساها إذن -هكذا حدث نفسه- ولا تتوقف عندها كثيرًا، لأن الحياة لن تتوقف، ستمضي الأيام وتدور عجلة الحياة، وعليه أن يدور معها وأن يتحلَّى بشيء من المرونة.

على الرغم من أن ذلك الرأي هو رأي العقل والذي اعتاد أن ينحاز إليه دائمًا، إلا أنه قد أخفق في ذلك هذه المرة وفشل في انتزاع نفسه من تلك الحالة البائسة، مازال عقله يبحث بدأب عن حل على الرغم من انعدام الرجاء، يسترجع اليوم الأول لقبوله العمل بتلك القضية، كافة المعلومات والخبايا وخطة العمل التي وضعها، يبحث بجنون عن أيَّة ثغرة، أيّة نقطة ضعف، أي مخرج، فلا يجد أمامه سوى طرق ضيقة مسدودة، يعود ليبحث من جديد مرات ومرات بدون كلل أو ملل حتى يشعر برأسه يكاد ينفجر، ولكن الغريب أن

ذلك المجهود العقلي هو الشيء الوحيد الذي يخفف من حدَّة المرارة التي يشعر بها، وكأن استغراقه الدائم في التفكير هو ما يُشعره بأن مازال هناك أمل وبأن الأمور لم تنتهِ بعد عند ذلك الحد.

صوت العقل بداخله ينخفض رويدًا رويدًا حتى يتلاشى تقريبا، لا مجال للنسيان ولا يوجد أبدًا مبرر للفشل، لم يكن الأمر بإرادته في الواقع، ربما كان قدره أن يبحث دائما عن الحقيقة حتى لو كانت مختبئة في كومة من القش، فتكرار المحاولة أخف وطأه على نفسه من الاستسلام، وكل الأبواب الموصدة ستُفتح بالتأكيد في نهاية الأمر، عليه فقط ألا ييأس من الطُّرق.

*****

تمر الأيام عليها ثقيلة متشابهة، أسبوع كامل قد مر منذ آخر لقاءاتها بأحمد والدكتور عمرو في المستشفى، ذلك اللقاء الذي أدركت فيه أنهم قد أخفقوا في حلِّ القضية، ومنذ ذلك اليوم وهي تعاني من حالة إحباط شديد، وحالتها النفسية تسوء باستمرار، ما جدوى دراسة كل تلك النظريات الصمَّاء مادامت لن تجني من ورائها نفعا؟ وما فائدة كل ما تعلمته إذن إن لم تستطع تطبيقه على أرض الواقع، يزداد شعورها بالاختناق كلما تذكرت اقتراحها بتطبيق المبادئ البيولوجية، ذلك الاقتراح الذي لم يُسفر عن أي شيء سوى أنه جعلها تبدو حمقاء، هي تعلم جيدًا ما يشعر به الدكتور عمرو الآن من ندم لكونه قد وافق على هذا الاقتراح، تتذكر فجأة كلماته التشجيعية لها في بداية المهمة وثنائه الدائم

عليها فتتصاعد تلك الغصة إلى حلقها، هي لم تستحق إيمانه بها على الرغم من رغبتها الحقيقية في المساعدة وحماستها الدائمة، شعور مقيت أن يكون أقصى ما لديك غير كافٍ.

هل ستُحل القضية؟ ربما، ربما تستطيع المباحث أن تصل للجاني وينتهي الأمر، حتى تلك الفكرة لم تمنحها ما تبحث عنه من راحة بال، في كل الأحوال هي لم تستطع أن تؤدي دورها بالشكل المطلوب، بل وخالفت ضميرها حين بحثت عن مجد علمي ونسيت أنها أمام جريمة حقيقية لا مجال فيها لإجراء التجارب، كيف سيمكنها المضي قدمًا في هذا المجال بعدما اهتزت ثقتها في نفسها إلى هذه الدرجة؟ وكيف ستستطيع أن تدرَّس ذلك العلم وهي تدرك في قرارة نفسها أنها ليست متمكنة منه بالقدر الكافي؟

تسمع فجأة تلك النغمة المميزة لرنين هاتفها فتستفيق من شرودها، تُلقي نظرة سريعة على شاشة الهاتف فيتضاعف ما تشعر به من ضجر وتُشيح بوجهها، خطيبها يتصل مجددًا، ذلك الاتصال السخيف المعتاد الذي يكون سببه –غالبا– هو السؤال عن أمور أسخف كتجهيزات شقة الزوجية والعرس وخلافه، لا تستطيع حقًّا أن تفهم سبب اهتمامه بتلك الأمور السطحية وعدم اهتمامه بمشاعرها، تمر الأيام ويكاد صبرها ينفد، لماذا لا يتكلم؟ لماذا لا يداعب قلبها الذي انتظر تلك المداعبة طويلا؟ ولماذا لا يلتفت لمحاولاتها المستمرة لجعل العلاقة أكثر حميميَّة؟ إن كان تجاهله مقصودًا فهي كارثة وإن لم يكن كذلك فهي كارثة أكبر، كيف لم يلحظ لهفتها وترقبها الدائم لأيّة لمحة رومنسية؟ الأمر لا يعدو مجرد كلمات، فلماذا يجعل الأمور تبدو صعبة بهذا

الشكل؟ التفسير الواحد أنه لا يشعر بتلك الأحاسيس، مجرد ارتباط روتيني والسلام، قد يبدو أقرب إلى الصداقة منه إلى الارتباط، حتى الصداقة لم تكن يوما بهذه الرتابة، هل هي حالة أكثر من اللازم؟ ربما، الخلاصة أنها لم تجد نفسها حتى الآن في تلك العلاقة ولم تعد متأكدة من صحة تلك الخطوة التي قامت بها رغما عنها.

تقف الآن بين طريقين، أحلاهما مُرٌّ، الأول أن تفسخ الخطبة بدون أن تُعلن عن السبب، وهو الطريق الذي سيجلب لها كثيرًا من التساؤلات والتلميحات من الأقارب بالإضافة لحزن وغضب والديها، والثاني هو أن تستمر في تلك العلاقة متناسية رغبتها الغريزية في الشعور بالحب وتلك الصورة الراسخة في ذهنها عن فارس الأحلام، طريق تبدو على جانبيه ملامح التعاسة ويظهر الفشل في نهايته ملوحًا بيديه.

تغمض عينيها في محاولة بائسة للانفصال عن الواقع، هاتفها يرن مرات ومرات ولا ترد، تشعر بأن هذه المرحلة هي أصعب مراحل حياتها، بكل ما مرَّت به في الآونة الاخيرة من أحداث متلاحقة غير سعيدة، وبكل تلك الصدمات التي أطفأت روحها المتفائلة المقبلة على الحياة، تراودها رغبة عارمة في تغيير كل شيء، عملها الذي لم تعد تحمل تجاهه أي قدر من الشغف، وخطيبها الذي ستظلمه وتظلم نفسها معه إن لم تفسخ ارتباطها به، تشعر بأن قيود الواقع تكبِّلها وترغمها على ارتكاب أفعال تُخالف إرادتها، تنهمر دموعها في صمت، وتبدو تلك الدموع هي أبلغ تعبير عن تلك الضغوط التي تلاحقها والذي يبدو الفرار منها أصعب مما تظن.

رفع الدكتور أمجد، عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة، حاجبيه استنكارا وتعجبا، وأخذ ينقل بصره للحظات بين أحمد الجالس أمامه وبين تلك الورقة التي وضعها الأخير أمامه..

- طلب نقل لجامعة عين شمس؟ ليه يا أحمد خير؟؟

قالها وارتسمت على وجهه علامات الاستفهام الممتزج بالجدية، نكس أحمد رأسه للأسفل ثم قال وهو يتحاشى تلك النظرات المتفحِّصة الموجهه إليه:

- معلش يا فندم، ظروف شخصية.

ظهر قدر من عدم الاقتناع على وجه الدكتور أمجد، وبدا أنه يود الاسترسال عن طبيعة تلك الظروف، ولكنه يخشى من أن يسبب لأحمد أي إزعاج.

تمرّ لحظات من الصمت المشوب بالحرج قبل أن يبادر الدكتور أمجد بالحديث بلهجة أبوية..

- بص يا أحمد، أنا لسة معرفكش بصفة شخصية، لكن سمعت عن اجتهادك وتفوقك، كل أساتذتك بيقولوا إنك نابغ في مجالك وموهوب فيه، وأنا بصراحة محبش أفرَّط أبدًا في حد بالمواصفات دي.

ابتسم أحمد ابتسامة تهكّم مريرة ولم يرد، من المؤكد أن رأي الدكتور أمجد كان سيختلف تماما إذا كان لديه علم بتلك المهمة وبأدائه المخيِّب فيها، ذلك

الأداء السلبي الباهت الذي لم يضف شيئا واحدًا ذا قيمة، ولم يساهم في التحقيقات ولو بشقِّ تمرة، أين ذهبت كل تلك العبقرية وكل ذلك النبوغ؟ كل تلك الإمكانيات التي يتحدث عنها الدكتور أمجد لم تسفر عن رأي راجح أو فكرة يتيمة صالحة للتطبيق، ربما أخفقت ياسمين حين اقترحت تطبيق النظرية البيولوجية، ولكنها في النهاية حاولت، أما هو لم يكن له أي دور يُذكر، واكتفى بدور المتفرج الصامت، تذكر فجأة المثل القائل (الصيت ولا الغِنَى) فشعر أنه ينطبق عليه تماما في ذلك الموقف، يبدو أن كل ما يتلقاه من أساتذته من عبارات الثناء وكلمات الإعجاب قد ذهبت في النهاية للشخص الخطأ.

- أنا كل اللي بطلبه منك حاجة واحدة، لو عندك مشكلة معينة في شغلك أو مع حد من زمايلك، صارحني، وصدقني هحاول أحلَّها بأقل خسايِر.

شرد أحمد ببصره مرة أخرى، ماذا يقول له؟ هو بالفعل لديه مشكلة مع زميلة له، ولكن يبدو أن أوان حلها قد فات، فلا داعي إذن لمزيد من التعلق بأوهام فارغة، هي تبدو سعيدة ومتماسكة على الرغم من كل شيء، الأيام تمر بدون أدنى تغيير يُذكر، مازالت مستمرة في الخطبة ومازال هو غير مرئيٍّ بالنسبة لها على الإطلاق، ماذا ينتظر إذن؟ أن يحضر عرسها ليكون أول المهنئين؟ سيكون من الصعب عليه أن يلعب دور الفارس النبيل مرة أخرى، لا مفر من الرحيل لبداية جديدة ونسيان قصة الحب الحالمة التي لم يعد يتبق منها سوى ذكريات ضبابية، سيشتاقها حتمًا، سيشتاق لابتسامتها الصافية الرقراقة كماء البحر، أسلوبها المميز في الحديث وطريقتها الجذابة، روحها التي تفيض

مرحًا وعذوبةً، صوتها، تعبيرات وجهها وردود أفعالها في كل موقف، سيشتاق لنظرتها، وسيشتاق لتلك اللحظة التي تخطف قلبه فيها حين تلتقي عيناها بعينه، سيفتقدها ويفتقد تلك الحالة التي تسببت له فيها، أَسَتَخْبو مشاعره تجاهها حقًّا بالابتعاد أم أنها مجرد وسيلة بدائية لتضميد جرحه النازف؟ ربما ستحفظ تلك الوسيلة بعضًا من كبريائه وعِزّة نفسه، لكن هل ستُنهي قصته المريرة بلا رجعة؟

- معلش يا فندم اعذرني، أنا أخدت القرار خلاص ويا ريت حضرتك تعفيني من ذكر الأسباب، بس أنا عايز حضرتك تتطمن، أنا معنديش أي صعوبات في الشغل ومفيش بيني وبين زمايلي غير كل خير.

ظهرت علامات الاستسلام على وجه الدكتور أمجد بعد تلك اللهجة الحاسمة التي تحدث بها أحمد، فهز كتفيه وقام بالتوقيع أسفل الطلب على الفور.

- خسارة، على العموم أنت لسة هتحتاج توقيع رئيس الجامعة، وهو حاليا برا مصر وهيرجع بعد خمس أيام، أتمنى تفكر كويس وهاكون سعيد جدًّا لو غيرت رأيك.

ظهر الامتنان على وجه أحمد الذي نهض من مقعده ومدَّ يده مصافحًا الدكتور أمجد وعلى شفتيه شبح ابتسامة.

- شكرًا على وقت حضرتك.
- العفو، ربنا يوفقك.

لم يعد الأمر غريبًا بالنسبة له، فمنذ انتهت تلك المهمة وهو يعاني من ذلك الأرق المستمر،على الرغم من تعمده عدم النوم إطلاقا طوال النهار لكي يخلد للنوم ليلا بسهولة، وعلى الرغم من محاولاته المستمرة للاندماج في العمل والبقاء في الكلية لأطول فترة ممكنة، يظل ذلك الأرق الغريب يلازمه يوميًّا ليضاعف شعوره بالإجهاد، والسيناريو الكئيب نفسه يستمر بعدما تنطفئ الأنواروبخلد جميع البيت للنوم ويبقى وحيدًا، تستيقظ كافة حواسه فجأة ويراوده إحساس عارم بالانتباه، حتى بعدما انتهى دوره في القضية منذ أكثر من أسبوع، لم يستطع أن يتقبل بعد فكرة الفشل أو أن يعود لحالته الطبيعيّة، لماذا أثرت فيه تلك القضية بهذا الشكل؟ ربما يكون قد تعرض لمواقف أصعب خلال حياته واستطاع أن يتجاوزها، لماذا تعطلت قدرته الطبيعية على النسيان في هذه الحالة بالذات؟

كعادة كل المصابين بالأرق، يداهمه النوم فجأة بدون أيَّة مقدمات أو إنذارات مسبقة، تنتظم أنفاسه أخيرًا ويسترخي جسده، مجرد نوم (فسيولوجي) إن صح التعبير، ذلك العقل المجهد وتلك الحواس التي نفد وقودها لم تعد تستطيع الاستمرار بدون أخذ قسطٍ من الراحة، وحان الوقت لكي تسلك مسارها الطبيعي الذي وضعه لها الخالق عز وجل، ولكن يبقى ذلك الإحساس بالصفاء وراحة البال غائب دائما ويظهر تأثير غيابه عند الاستيقاظ صباحا، عندما يبدو عليه الإرهاق الشديد ويتصرف أحيانا بعصبية بسبب ذلك الصداع المرير الذي يكاد يفتك به، وكأن خلايا عقله قد حصلت

على هدنة سريعة لكي تعود بصورة مباغتة إلى عملها بدون أن تستريح أو تتجدد.

تراوده أضغاث الأحلام مجددًا، تلك الهلاوس التي لم يعتَد أن يُلقي لها بالًا، والتي تميز ذلك النوع من النوم غير المستقر، فيرى مواقف غريبة حدثت في الماضي السحيق، ممتزجة بمشاهد ليس لها معنى مختزنة في ذاكرته، أشخاص وأحداث لا تجمعهم أيّة علاقة ولا تربط بينهم أيّة صلة سوى وجودهم في الجزء المظلم نفسه من عقله الباطن، الرؤى الغريبة نفسها تتكرر بصفة يومية تقريبا؛ حتى اعتادها وأصبح يتوقع ما سوف يراه، خيالات متلاحقة مربكة تعصف بذهنه فتصيبه بمزيد من الإرهاق، ولكن في ذلك اليوم بالذات، كان ما رآه في أحلامه غير مألوف بالمرة.

يرى المشتبه فيهم الخمسة واقفين أمامه بلا حراك، متجاورين في صف واحد، لا تبدو على وجوههم أي تعبيرات أو انفعالات، عيونهم مفتوحة وملامحهم جامدة صامتة وكأنها تماثيل من الشمع، تراوده رغبة في الاقتراب منهم أكثر فأكثر، رغبة غير مبررة، لكنه ينساق وراءها على أيَّة حال، يقترب جدا حتى يكاد يلامسهم، برفق شديد يضع يدا على وجه المشتبه فيه الأول ويراقب انفعالاته بحذر، فلا يبدو على الأخير أنه يشعر أساسا بتلك اليد التي تتحسس وجهه، يكرر ما فعله بالبقية، يمرر يديه على وجوههم بالأسلوب نفسه الذي يتبعه الكفيف لتمييز الوجوه، ثم يبتعد عنهم فجأة ليرجع عدة خطوات للوراء، يجول بصره بين الوجوه مرّاتٍ ومرّاتٍ، يتأملهم بتفحص وكأنه يبحث عن شيء ما، يركز بصره على عيونهم، شكلها ولونها ومدى

اتساعها، حجم أنوفهم وشفاههم وشكل الوجه نفسه، شكل الوجنتين والذقن وعرض الجبهة ومدى بروزها، يحول بصره تجاه أجسادهم ليلقي نظرة عامة، يقارن بينهم من حيث الطول والقِصر، حجم الأذرع مقارنة بباقي الجسم، المظهر العام للكتف والصدر وحجم الرأس، يعود ليتأملهم مرة أخرى بدقة أكبر، يدور حولهم عدة مرات لكي يعرف كل تفصيلة صغيرة في مظهرهم، يستمر بالدوران حولهم بدون توقف، وعيناه ملتصقتان بوجوههم وأجسامهم، يصيبه الدوار فيغمض عينيه، يشعر وكأنه يهوي سريعا في بئر عميقة مظلمة، فيستيقظ أخيرًا.

تمر ثوانٍ معدودة يستعيد فيها إدراكه للمكان والزمان، ويستعيد مرة أخرى تفاصيل ذلك الحلم شديد الغرابة، التساؤل يملأ نفسه عن مغزى ذلك الحلم، أهي مجرد خيالات زائفة أم أن هذا الحلم بالتحديد له دلالة ما؟ تراوده الرغبة في التفكير، ولكن لا يجد في نفسه القدرة لذلك، يغمض عينيه مرة أخرى على أمل العودة للنوم فيشعر باستحالة ذلك مع كل ما يعانيه من توتر، يبدو أن فرصته الوحيدة للتغلب على أرقه قد انتهت، وعليه الآن أن يكمل ما تبقى من سواد الليل بعينين مفتوحتين.

لليوم الخامس على التوالي يتكرر الحلم العجيب نفسه بتفاصيله نفسها، الوجوه المعتادة نفسها تقف متجاورة بدون أن يظهر عليها أي تعبيرات، النظرات التفصيلية المتفحصة نفسها، يرمقهم بها بجدية ودأب وكأنه يبحث عن علامة مميزة، المقارنة المعتادة بين العيون والأنوف وباقي تفاصيل الوجه تتكرر بحذافيرها، ويعود ليدقق في شكل أجسامهم ويدور حولهم وكأنه يشتري عبيدًا من سوق النِّخاسة، إلامَ يرمي عقله الباطن بكل تلك الهواجس الضبابية؟ وما السر وراء ذلك التقليد الغريب الذي لم يعد بفارقه مؤخرا؟

يستيقظ مرة أخرى وسط سكون الليل، الثانية المعهودة تمر ويدرك خلالها أبعاد الزمان والمكان فيتنهد بمزيج من الضيق وقلة الحيلة، لا مفر من ذلك الأرق اللعين إذن، ولا مهرب من تلك الرؤى عديمة المضمون والتي ستصيبه بالجنون يوما ما، يسترق النظر إلى ذلك المنبه الصغير الكئيب، رفيقه الوحيد في محنته الليلية، الساعة لا تزال الثالثة والنصف فجرًا، ولا تزال أمامه أربع ساعات كاملة حتى يحين موعد الذهاب للعمل، لابد أن ينام بأيَّة طريقة، يريح رأسه على الوسادة الإسفنجية الوثيرة ويغمض عينيه للحظات متظاهرًا بالاسترخاء.

محاولة فاشلة أخرى، يأبى عقله أن يتقبل فكرة السكون على الرغم من توافر كل المقومات، من الممكن أن يكون لذلك الهدوء القاتل تأثير عكسي، فأصوات أفكاره تعلو حتى يكاد يسمعها، والأحداث تتزاحم في رأسه بصورة

مشوشة، يحاول أن يركز في أي شيء ليسلي نفسه، فيذهب عقله لا شعوريًّا إلى ذلك الحلم الغريب دائم التكرار، لماذا تظهر تلك الوجوه أمامه بهذا الوضوح؟ وما معنى ذلك التدقيق المحكم في كل تفاصيلها، هل توجد أيَّة علامة مميزة من الممكن أن ترشده إلى شيء ما؟ هي مجرد وجوه عادية لا يوجد بها شيء واحد غير مألوف، وجوه طبيعية يرى مثلها يوميًّا عشرات المرات، هل يوجد أيّ منها يحمل علامة أو أكثر من العلامات المميزة لوجوه المجرمين؟ جروح قطعية مثلا أو خياطة ما؟ لا يوجد ذلك على الإطلاق، وحتى لو.. قد يكون ذلك بسبب حادثة عرضية أو إصابة عابرة، وليس شَرْطًا أن تدلّ تلك الأمور الظاهرية على وجود شبهة جنائية أو سوابق إجراميّة، ما علاقة الوجه أساسا بالإجرام؟؟ وما..

خطرت له فكرة مفاجئة أصابته بما يشبه الصدمة الكهربائية، وتوقف عقله تماما عن التفكير في أي شيء سواها، لحظات تمر بدون أن يستوعب تلك الخاطرة التي داهمته فجأة بدون سابق إنذار، تتوقف جميع حواسه باستثناء حاسة التنفُّس، ويمر وقت طويل بدون أن ترمش عيناه أو أن يتحرك من مكانه قيد أُنملة، الفكرة المجنونة تستحوذ عليه أكثر فأكثر وينساق وراءها بدون أدنى مقاومة، وكأنها قَبَسٌ من نور يلوِّح له من بعيد وسط كل ما يحيط به من ظلمات كالحة، فلا يملك من أمره شيئا سوى أن يتبعها مسلوب الإرادة.

ينهض من سريره بسرعه حتى يكاد يوقظ زوجته، يهرول إلى حجرة المكتب حافيًا غير مهتم بظلمة الصالة، تصطدم قدماه بعشرات الأشياء محدثة ضجة لا بأس بها ولا يؤثر ذلك على حماسه أو على سرعته مثقال ذرة، يصل

أخيرًا إلى حجرة المكتب المفتوحة فيفتح (الأباجورة) الصغيرة سريعا، ثم يفتح درج مكتبه الأخير ليخرج منه ملف القضية، يقلب أوراقه على عجل حتى يصل لبيانات المشتبه فيهم، خمس ورقات كل ورقة تحوي بيانات مفصلة عن المشتبه فيهم وصورة واضحة، يقوم بفرد الأوراق الخمس أمامه على المكتب، وبالطريقة نفسها التي يرى بها الوجوه في ذلك الحلم، ثم يتجه نحو مكتبته البسيطة المكونة من خمسة أرفف خشبية مثبتة على الحائط، يبحث فيها بدأب بين الكتب والمراجع والمجلات والأبحاث العلمية ورسائل الماجستير والدكتوراة، بحث مضني عن كتاب معين لم يظن يوما أنه سيحتاجه، يصل إلى مبتغاه فيشدّه شدًّا من بين الكتب ولا يبالي بما سقط منها على الأرض، يرمق ذلك الغلاف العتيق بارتياح وعلى شفتيه تعلو ابتسامة انتصار.

يفتح ذلك الكتاب حتى يصل للصفحة التي يبحث عنها، ينقل بصره بين ما هو مكتوب في تلك الصفحة وبين الصور المعروضة أمامه، يبحث بين الصور الخمس عن شيء ما فلا يجد نتيجة، يعود ليبحث مرة أخرى عن شيء آخر، ومرات ومرات عن أشياء أخرى، فيجد ضالته أحيانًا وأحيانًا أخرى يعود بخفي حنين، الفحص يحتاج قدرًا هائلًا من التركيز ودرجة عالية من اليقظة، يدوِّن كل ما يراه على ورقة بيضاء لكي ينظم أفكاره، حتى ينتهي من عملية التدقيق فيغلق الكتاب ويطالع ما دوَّنه على الورقة، لا يمر وقت طويل حتى يستطيع أن يصل إلى استنتاج ما، استنتاج يبدو غريبًا لدرجة تجعل من الصعب تصديقه، وعلى الرغم من ذلك فهو لا يرى أمامه سوى ذلك الطريق وعليه أن يسلكه مهما حدث، بقلمه الأحمر يضع دائرة على وجه أحد المشتبه

فيهم ويطيل النظر إلى صورته، الأمر يتطلب مجازفة بلا شك، ومادامت بارقة الأمل قد ظهرت في الأفق فسيتبعها مهما كانت بعيدة، وسيسير وحيدًا وراء هدفه مهما كلفه ذلك من خسائر أو استنكارات.

*****

أمام باب الشقة الخشبي العتيق وقف مترددًا، لماذا جاء إلى هنا وعن أي شيء يبحث؟ كيف واتته الجرأة للقيام بتلك الخطوة؟ هو ليس شرطيًّا أو وكيل نيابة، ولن يكون أبدا، فلماذا يتقمص ذلك الدور الآن؟ بالإضافة لكونه لا يملك خطة محددة ومن الوارد أن تفشل تلك اللعبة الخطرة التي ينوي الخوض فيها، من الأفضل حقًّا أن يعود أدراجه لكيلا تسوء الأمور، شعر بالاطمئنان لتلك الفكرة خاصة مع ما يشعر به من خوف واضطراب، وهمَّ بنزول أدراج السلم والعودة لسيارته مرة أخرى، لولا أنه تذكر أن كل الأبواب أصبحت موصدة أمامه باستثناء ذلك الباب، وأن فكرة الإستعانة بأي شخص الآن تبدو مرفوضة ومستبعدة، لا مفرَّ إذن من أن يُقدم على تلك الخطوة وأن يتحلى ببعض الجسارة، حسم أمره سريعًا وضغط الجرس ثم وقف يراقب ما سيحدث بوجل، مستوى الأدرينالين في دمه يتضاعف ويشعر بضغط دمه يرتفع لمستويات قياسية، ينفتح الباب لتظهر سيدة نحيلة في أوائل الأربعينيات ترتدي السواد، ويبدو في ملامحها المنكسرة قدر من التساؤل الممتزج بالتحفظ:

- صباح الخير.

- صباح النور.

ترد التحية ونظرة التساؤل في عينها تزداد وضوحا.

- دي شقة الأستاذ محمد ناجح؟

- أيوة.. خير؟

تزداد نظراتها حدة ولهجتها صراحة، عليه الآن أن يجد حلًّا سريعًا لهذا الموقف لكيلا تتطور الأمور للأسوأ.

- آآآ.. أنا إبراهيم محسن، زميله في البنك.

- أهلا وسهلا.

- في الحقيقة أنا كنت مستلف منه مبلغ كده وعايز أرجَّعه، أنا قلت إنك ممكن تكوني محتاجاه في الظروف اللي زي دي.

هدأت ملامحها قليلا وظهر عليها قدر من الارتياح، ثم فتحت باب الشقة بترحاب وأشارت إليه بالدخول:

- طيب اتفضل.

- شكرًا.

بدا عليه قدر من الحرج، ولكنه كان سعيدًا في قرارة نفسه لكون مخططه يسير كما رسم له.

جلس على استحياء على تلك الأريكة الأنيقة رمادية اللون وجلست قبالته، لاحظ أنها تركت الباب مفتوحًا مما يعني أنها وحيدة بالشقة، من المؤكد أن الابنة الوحيدة بالمدرسة في هذا التوقيت، ومن المؤكد أيضا أن هذه الزيارة لا يمكن أن تطول كثيرًا، عليه إذن أن يبادر بالحديث بسرعة..

- إزي الأستاذ محمد دلوقتي؟ أخبار صحته إيه؟

شردت نظراتها وظهر على وجهها ملامح الأسى، تجمعت الدموع في مقلتيها ثم أردفت بصوت منكسرٍ:

- الحمد لله، مفيش جديد، الغيبوبة لسة مستمرة.
- ربنا يشفيه ويقومه بالسلامة.
- آمين.
- بس أنا كنت ملاحظ إن الأستاذ محمد بقاله فترة كدة متغير من قبل الحادثة.

رفعت وجهها نحوه وقطبت حاجبيها متسائلة، فابتلع ريقه ثم تابع:

- مش عارف، كنت حاسس كدة إن فيه حاجة مضايقاه أو شاغلاه.

لم يكن أداؤه مقنعًا إلى حد كبير، لكنها محاولة لجس النبض لابد من القيام بها لحثها على الاسترسال في الحديث.

ظلت صامتة للحظات وبدت وكأنها تفكر بعمق وتسترجع عديدًا من المواقف، لحظات مرت ثقيلة عليه إلى حد لا يوصف، فهذه النقطة تحديدًا قد تفتح مجالات للحوار إذا كان ما يقوله صحيحًا.

- بصراحة أنا حسيت بكدة برضو، من فترة بدأت أحسن إنه علطول ساكت وسرحان ومكشر، وكأنه بيفكر في حاجة معينة بشكل مستمر، بس الكلام دة بقاله أكتر من 3 شهور، من يوم ما اتنقل فرع إسكندرية وساب الفرع اللي كان شغال فيه طول عمره، هو كان عنده أي مشاكل مع زمايله؟

ظهرت الصدمة على وجه الدكتور عمرو، هذه المعلومة جديدة لديه تمامًا، لماذا انتقل لهذا الفرع قبل ثلاثة أشهر من حدوث الجريمة؟ وما سبب الانتقال؟ تذكر فجأة ذلك السؤال الذي وجهته إليه، فاستفاق من شروده وهز رأسه نفيًا بشدة ثم قال:

- لا لا إطلاقًا، أستاذ محمد كان محبوب من الكل.
- أمال إيه بقى؟ يمكن كان عنده مشاكل في طبيعة الشغل نفسه.
- وأنتِ محاولتيش تسأليه؟
- حاولت كذا مرة وكل مرة يقول لي مفيش حاجة، دي مشاكل الشغل العادية، بس بصراحة مكنتش مصدقة، لأنه طول عمره بيقدر يفصل بين مشاكل الشغل والبيت وعمره ما مر بالحالة الغريبة دي.
- هوه ليه اتنقل أصلا من الفرع القديم؟
- يا ريته ما اتنقل والله، كانت خطوة مش محسوبة خالص، مع إنه كان مرتاح جدًّا في المكان الأولاني وكانت الأمور مستقرة، كانت مبرراته غريبة، كان بيتحجج بإنه مجرد موظف ائتمان في الفرع القديم، لكن لما يتنقل هيبقى رئيس قسم ومرتبه هيزيد، بس الحقيقة إن الزيادة دي مكانتش مكفيّة مصاريف السفر ولا كانت مستاهلة تعبه، كمان كان بيقول إنه محتاج بيئة شغل

جديدة لأنه زهق من الشغل في نفس المكان فترة طويلة، كلامه بصراحة مكانش مقنع بس أنا مرضيتش أعارضه، قلت هو أدرى بنفسه.

تجمعت الدموع في عينها مرة أخرى وتهدَّج صوتها في نهاية الحديث، نظر الدكتور عمرو إليها بشيء من الشفقة، هي في وضع لا تحسد عليه بطبيعة الحال.

بدا أنها تحاول تغيير دفة الحديث فجأة، فابتسمت ابتسامة مفتعلة ثم قالت:

- وحضرتك بتشتغل في قسم إيه بقى؟

- خدمة العملاء

كان هذا الخيار الوحيد الذي تبادر لذهنه.

- وإيه موضوع الفلوس دي؟ محمد مقاليش أبدا إنه مسلف حد من زمايله.

قالتها بلهجة مرحة إلى حد ما.

- آآآ لا دي كانت مرة واحدة بس، أصل آآآ عربيتي لما خرجت من البنك لقيتها عطلانة ومكانش معايا فلوس ساعتها، هو شاف الموقف بالصدفة وعرض عليا المساعدة، وأنا بصراحة مكانش قدامي اختيار تاني.

أومأت برأسها إيجابا بتفهَّم ثم عادت للصمت، عقله يعمل بسرعة الصاروخ للبحث عن الأسئلة التي قد تُفيده، يتبادر إلى ذهنه أن يحاول استكشاف أمر ما، مد يده في جيبه وأخرج مبلغا من المال ثم وضعه أمامها على المنضدة وقال:

- دول ال600 جنيه اللى كنت استلفتهم، أنا عارف إن المصاريف كتير ربنا يكون في عونك.

- ربنا يكرمك يا رب.

- أنا ولادي برضو في التعليم وعارف الظروف، مبقاش فيه حاجة مكفية.

توقف عن الكلام منتظرًا ردها ولكنها ظلت صامتة، فحاول مرة أخرى أن يدفعها للحديث في هذا الاتجاه.

- أكيد أنتم زي حالاتي يعني.

هزت كتفيها هزّة بسيطة ومطت شفتيها ثم أردفت:

- لا عادي والله، الحمد لله على كل حال، مع إني مبشتغلش، لكن مرتب محمد كان بيكفينا ويفيض، مرتبات البنوك برضو معقولة، ده أنا حتى كنت بقوله يدخل جمعية كل شهر بالجزء اللي بيتبقى من المرتب بدل ما بنضيعه في الفسح والأكل من المطاعم.

بدا واضحًا جدا أن الأحوال المادية على ما يرام، نقطة مهمة لابد أن يضعها في حسبانه.

الصمت يسود مرة أخرى، يشعر وكأنها لم تعد تجد شيئا لتقوله ويراوده الشعور نفسه، فَهَمَّ واقفا بشيء من الحرج استعدادا للانصراف، ليقع بصره على ذلك العطر الرجالي المميز باهظ الثمن الموضوع على البوفيه.

- ده البرفان بتاع محمد مش كدة؟

- ممم آه، كان أخوه جايبهوله من السعودية وكان غالي أوي، كان بيحط منه كل يوم.

- كان عندي نفس النوع، ريحته جميلة فعلا.

ابتسمت في وجهه ابتسامة قصيرة ثم وقفت استعدادا لتوديعه..

- طيب أنا هامشي بقى، حضرتك مش محتاجة حاجة؟

- ألف شكر، دعواتك لمحمد.

رمقها بنظرة شاردة بعد سماع الجملة الأخيرة ثم تمتم..

- ربنا معاه.

*****

وقف يتأمل نفسه في المرآة بشرود قبل أن يبدِّل ملابسه، حالة غريبة من التشتت والتخبط يمر بها بعد تلك المقابلة، المعلومة الأكثر أهمية بالنسبة له هي انتقال المشتبه فيه للعمل بفرع الإسكندرية منذ ثلاثة أشهر فقط، وتلك التغيرات السلوكية التي ظهرت عليه منذ ذلك الحين، هناك سرّ ما وراء تلك الخطوة بلا شك، ما الذي دفعه لتغيير بيئة عمله ذلك التغيير الجذري بدون مبررات مقنعة؟ وهل هناك علاقة ما بين القتيلة وبين كل تلك التفاصيل؟ كيف يمكن إيجاد الدليل على ذلك؟ يسترجع تلك المعلومة التي قرأها بملف القضية من قبل عن تاريخ التحاق القتيلة بالعمل، والتي تفيد بأنها قد بدأت العمل بالبنك من حوالي سبعة أشهر، أي قبل انتقال المشتبه فيه بأربعة أشهر، هل لتلك المعلومات أيّة دلالة؟؟

خيوط القضية تبدو متباعدة تفتقر لحلقة وصل، يعود ليسترجع باقي تفاصيل حديث الزوجة، والذي فهم منه أن المشتبه فيه لا يمر بأيَّة ضوائق مالية، مما قد يُبعد بعض الأفكار التي تتعلق أحيانا بجرائم القتل مثل الابتزاز أو الاختلاس، كذلك فإن حزن الزوجة وطريقة حديثها عن زوجها تدل على أن علاقتهما طبيعية ولا توجد خلافات جوهرية أو مشكلات مستديمة، الأمر الذي قد يصعَّب من فكرة ارتباطه بامرأة أخرى أو وجود أيَّة علاقة نسائية في حياته، هل من الممكن حقا أن تكون هناك علاقة خفية تربطه بالقتيلة، وتلك العلاقة هي السبب في حالة الشرود والتجهم الدائم التي ظهرت عليه؟ ربما كان يعاني من تأنيب الضمير المستمر مثلا، كلها تخمينات لا ترقى أبدًا لمرتبة الحقائق وقد لا يكون لها أي أساس من الصحة، مجرد أفكار هوائية يحاول أن يستعرضها لكي يقنع نفسه بأن القضية لم تنتهِ وأن الأمل مازال قائمًا، ولكنه يدرك جيدًا في قرارة نفسه بأن الأمور أصعب مما يظن بكثير.

يراوده خاطر مفاجئ يجبره على الابتسام، آه لو عرف العميد محسن بتلك الخطوة التي اتخذها ونفذها بنفسه بالذهاب لزوجة المشتبه فيه، وافتعال ذلك الموقف للحصول منها على أيَّة معلومات، ناهيك عن السبب الواهي جدا الذي دفعه للاشتباه في ذلك الشخص من الأساس، ليس من المستبعد أن يظن أنه يعاني من خللٍ عقليّ ما، ويأمر بإيداعه إحدى مصحات الأمراض النفسية والعصبية، تتلاشى الابتسامة المرسومة على وجهه سريعا، ويعود ليفكر في الأمر بواقعية، فعلى الرغم من أسلوب العميد محسن التقليدي الصارم، إلا أن هذا الأسلوب يبدو ملائما لهذا المجال، لا يمكن إلقاء الاتهامات إلا بناءً على

دليل مادي ملموس، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بجريمة قتل، وتبقى كل التحليلات النفسية والاحتمالات النظرية مجرد علامات قد تساعد في الوصول للحل، ولكن يستحيل الاعتماد عليها بصورة نهائية.

وقع بصره فجأة على زجاجة العطر السوداء الأنيقة الفارغة الملقاة بدون اهتمام أمام المرآة، العطر نفسه الذي رآه مؤخرًا في شقة المشتبه فيه، مصادفة غريبة حقا، والأغرب أن زوجته لم تتخلص من تلك الزجاجة بعد على الرغم من حرصها الدائم على نظافة هذا المكان بالذات، التقط تلك الزجاجة المكسوة بطبقة من التراب وأخذ يتأملها للحظات، كان عطرًا جميلًا بحق، من أجمل العطور التي اقتناها وأكثرها ثباتًا وتأثيرًا برائحته النفاذة المميزة، ليس مستغربا أن يكون كذلك، خاصة مع كونه باهظ الثمن، أخذ يقلبه بين يديه بلا هدف محدد، الأناقة الفرنسية تبدو واضحة في شكل الزجاجة وطريقة تصميمها الانسيابية وفي جودة ودقة الكتابة المحفورة عليها، حتى مكونات العطر المكتوبة على الوجه الخلفي للزجاجة بخط متناهي الصغر تبدو واضحة ومفهومة، وكأن هناك من يهتم بتلك المكونات أو يلاحظ وجودها أصلا.

تصلبت عيناه على تلك الكلمات الدقيقة فجأة، هل من الممكن أن يكون ذلك صحيحًا؟ أن تكون تلك الفكرة قابلة للتطبيق في الواقع بحق؟ أو أن يقوده ذلك الطريق إلى شيء ما؟ تلك الفكرة التي راودته على الرغم من غرابتها إلا أنها تبدو عبقرية، بل وملائمة للظروف تماما، بل إنها أكثر الأفكار منطقية وإقناعا في الوقت الحالي، من المؤكد أن كل تلك الدلائل والعلامات التي اجتمعت لترشده إلى ذلك الطريق لم تكن مصادفة، بدءًا بتلك الأحلام

الغامضة المتكررة، وانتهاءً بتلك اللحظة التي يمر بها الآن والتي يشعر فيها بتفاؤل حقيقي، وبأن الطريق لم يعد شاقًّا كما كان في السابق، عى الرغم من أن الأمور لم تتغير ولم يحدث أي تقدم إيجابي فعلا في القضية، إلا أن ذلك الشعور العارم بالنشوة يتمكن منه رغما عن إرادته ويدب الحياة في كافة حواسه.

تبدو الخطوة التالية واضحة وضوح الشمس، لكنه لن يستطيع القيام بها بمفرده هذه المرة، الأمر أكبر منه، ولابد من اللجوء لذلك الشخص الذي سيفتح أمامه كل الطرق الموصدة، ولكن هل لا يزال ذلك الشخص يثق به أو يؤمن بقدراته؟ وهل لا يزال يملك الرغبة لمساعدته بعد كل تلك الإخفاقات؟ من المؤكد أن إقناعه لن يكون سهلًا، ولكنه سيوافق في النهاية لا محالة، فكرة وجود دليل مادي ستثير فضوله، ولن يضيع تلك الفرصة من بين يديه أبدًا، الأمر لا يحتاج سوى مزيد من الصبر وإعادة المحاولة مرارًا وتكرارًا والنتيجة ستكون مضمونة بلا شك، حسم أمره وأخرج هاتفه المحمول من جيب بنطاله سريعا، ليطلب ذلك الرقم المميز بحماسة ويضع السماعة على أذنه، يأتيه الرد سريعا فيتنحنح للحظة قبل أن يردف:

- أكلم العميد محسن لو سمحت؟

شعرت ياسمين بمزيج من التوتر والانفعال في أثناء انتظارها الدكتور عمرو في تلك الكافتيريا، ثلاثة أسابيع كاملة قد مرت منذ ذلك اللقاء الأخير الذي جمعها به وبأحمد، والذي لم يسفر عن الوصول لأي حل مقبول للقضية، كانت تظن طوال تلك الفترة أن المهمة قد باءت بالفشل وانتهى الأمر، وكانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لها عندما وصلتها تلك الرسالة من الدكتور عمرو، والتي يطلب فيها أن يقابلها في المكان نفسه، أَمِنَ الممكن حقا أن يكون هناك أي مستجدات في القضية أم أن للمقابلة هدفًا آخر، تلك القضية كانت تعني كثيرًا بالنسبة لها، وشعرت بمرارة كبيرة عندما فشلت فيها، أستطاع الدكتور عمرو أن يصل لطرف خيط أم أنه مازال يبحث عن أفكار جديدة؟ هل استطاعت المباحث أن تصل للجاني؟ والسؤال الأهم.. هل استفادت المباحث من كل ذلك المجهود المضني الذي بذلوه في الفترة الماضية؟ أسئلة كثيرة تتتابع على رأسها منذ ليلة الأمس لدرجة أنها بقيت مستيقظة طوال الليل من فرط التوتر، ودفعها ذلك التوتر إلى الحضور قبل الموعد المنشود بساعة كاملة.

استرقت النظر بغيظ إلى أحمد الجالس صامتًا أمامها على الطاولة نفسها، من الواضح أنه تلقى رسالة مماثلة من الدكتور عمرو، وعلى الرغم من ذلك لا تبدو عليه أيَّة حماسة للأحداث، بل يبدو متجهّما مكتئبًا، لا تدري حقا ماذا دهاه! ذلك الشاب لم يكن كذلك فيما مضى بل كان كتلة من الذكاء والنشاط والحيوية، لماذا أصبح منزويًا منطويًا طوال الوقت وما سر ذلك التغيير؟ كانت

قد سمعت منذ عدة أيام أنه قد تقدم بطلب للانتقال إلى جامعة أخرى، يبدو فعلا أنه يعاني من مشكلة ما ويحتاج للمساعدة، ولكن كيف ستساعده وهو يبدو منغلقًا بهذا الشكل، بالإضافة لما رأته منه مؤخرًا من التعامل بأسلوب جاف تشوبه بعض العصبية غير المبررة، عليها إذن أن تبقى صامتة خوفا من أن تسمع كلاما يؤذيها، على الرغم مما تشعر به من رغبة صادقة في مساعدته على تخطي تلك الأزمة التي يمر بها.

قطع حبل أفكارها وصول الدكتور عمرو، أخذت تتأمل للحظة تأنقه المبالغ فيه وابتسامته العريضة غير المعتادة وخطواته السريعة المتحمسة، شعرت بأن هناك خطبًا ما..

- مساء الخيير.

قالها بصوت مرتفع قليلا وبلهجة مرحة، ثم مد يده مصافحًا أحمد الذي لم يُبدِ القدر من الحماسة نفسها، والذي بدا عليه التعجب عندما شدَّه الدكتور عمرو شدًّا من يده الممدودة وعانقه، ثم أبعده عنه وأردف وهو يتأمله باعتزاز..

- أبو حميد، تلميذي النجيب، خليفتي في الملاعب.

لم يرد أحمد، ولكن كانت نظراته كافية جدا للتعبير عما يدور في ذهنه من تساؤلات، يمد الدكتور عمرو يده إلى ياسمين ليصافحها بحراراة ثم يتابع:

- ياسمين الجميلة، بنتي، واللي بتمنى أشوف بناتي زيَّها.

تورَّد الدم في وجهها خجلًا، وحاولت أن ترد التحية ولكن الدكتور عمرو لم يعطِها الفرصة، حيث أسرع يجذب أحد الكراسي من إحدى

الطاولات المجاورة ويجلس عليه بعفوية، الابتسامة الواسعة لا تفارق وجهه، ابتسامة توحي بالأمل بلا شك.

- مبدئيًّا يا جماعة أنا حابب أشكركم على مجهودكم معايا طول الفترة اللي فاتت، أنتم فعلا كنتم عند حسن ظني بيكم، وعملتوا كل اللي تقدرو عليه، أنتم ممكن تفتكرول إني بجاملكم وخلاص ودي مش حقيقة، أنتو اشتغلتوا بأسلوب علمي منظم ومرتب، ولولا اقتراحاتكم ومساعدتكم ليا مكنتش هاوصل أبدا لأي حاجة.

بدت الحيرة على وجه ياسمين ولم يكن أحمد أفضل حالًا، لحظات بسيطة تمر قبل أن يُلقي الدكتور عمرو قنبلته المدوّية:

- ألف مبروك يا جماعة، القضية خلاص اتحلّت.

هبَّت ياسمين واقفة وبعينيها نظرة غير مصدقة، ملامح الذهول تبدو على وجه أحمد الذي تخلى عن تجهمه مؤقتًا، لحظات تمر دون أن ينطق أحدهم ببنت شفة ثم تظهر سعادة طاغية على ملامحهم أخيرًا، تلك السعادة التي طال انتظارها والتي كانت تبدو بعيدة المنال إلى أقصى حد، من كان يتوقع أن تحدث تلك المفاجأة السارة بدون أيَّة مقدمات؟

حاول أحمد الحفاظ على هدوئه بينما تخلت ياسمين بسرعة عن وقارها وبدت غير قادرة على السيطرة على انفعالاتها، وأخذت تتبادل نظرات الانتصار مع أحمد، نظرات ذات معنى تبدو فيها فرحة النجاح واضحة وضوح الشمس.

تهز ياسمين رأسها بتساؤل وقد بدا أن الفضول سيفقدها صوابها:

- طب ازاي؟ دي السكك كلها كانت متقفلة، معقول يكون فيه نقطة معينة نسيناها؟

هز الدكتور عمرو رأسه نفيًا والابتسامة لاتزال على وجهه، ثم استنشق نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- إزاي دي بقى، هحكيهالكم بالتفصيل الممل.

تركزت نظرات ياسمين وأحمد على وجهه فتابع سريعا:

- طبعا أنتم عارفين إننا مقدرناش نوصل لحاجة لما فكرنا نطبق مبادئ النظرية البيولوجية، ودي كانت آخر أمل لينا، بصراحة الفشل في المهمة دي كان شيء صعب جدًّا بالنسبالي ومُحبِط لأقصى درجة، ومتهيألي أنتم كمان حسيتوا بنفس الإحساس ده.

أومأ الاثنان برأسيهما إيجابا في وقت واحد، فاستكمل الدكتور عمرو حديثه:

- كان فيه شيء جوايا مش قادر يتقبَّل الفشل ده، لدرجة إني حسيت إن عقلي مش عارف يبطل تفكير في القضية وفي كل تفاصيلها، كنت حاسس إن لسة فيه أمل، وإني ممكن أوصل لحل فعلا، القضية استحوذت تقريبًا على كل دقيقة من وقتي، بقيت بفكر فيها في البيت، في الشغل، وأنا قاعد مع أصحابي أو أسرتي، ومش هتصدقوا لو قلتلكم.. وأنا نايم.

ظهرت علامات الاستفهام على الوجوه فأردف:

- الموضوع بدأ بحلم، حلم غريب مقدرتش أفسره في البداية، وكنت فاكر إنها مجرد هلاوس أو تهيؤات، لكن لما اتكرر كذا مرة حسيت إن ربنا بيبعت لي رسالة معينة وعايزني أترجمها، خصوصا وإن الحلم ده مرتبط بالقضية بشكل واضح جدا.

- وحضرتك شفت إيه في الحلم ده؟

قالتها ياسمين بفضول.

- شفت المشتبه فيهم واقفين صف واحد جمب بعض، من غير ما يتكلموا أو يتحركوا، وأنا عمال أبص على كل تفصيلة صغيرة في ملامحهم، وأدقق في وشوشهم كأني بدور على حاجة معينة، أفضل طول الحلم أتأمل فيهم بكل صبر وتركيز وأدور حواليهم، الحلم ده اتكرر يوميًّا لمدة خمس أيام بنفس تفاصيله كأنه بيتعاد بحذافيره، وكل ما أصحى منه أفضل أسأل نفسي سؤال واحد مبيتغيرش، إيه علاقة وشوش المشتبه فيهم بالقضية نفسها؟ وإيه الحقيقة اللي ممكن أوصل لها من خلال الوشوش دي؟ ساعتها خطرت لي فكرة تعتبر غريبة جدا، ومستبعدة في الأحوال العادية، لكن في الظروف دي تعتبر هي الفكرة الوحيدة اللي ممكن أعتبرها مقبولة ومرضية، خصوصا إن ليها علاقة بالأسلوب البيولوجي اللي استخدمناه في تحليل شخصية المشتبه فيهم..

لمعت عينا ياسمين وبدت وكأنها قد فهمت ما يرمي إليه الدكتور عمرو، بينما ظهرت علامات الحيرة على وجه أحمد بوضوح..

ضرب الدكتور عمرو فجأة بكلتا يديه على الطاولة، ثم صاح بصوت مرتفع وبلهجة منتشية:

- لومبروزو يا جماعة، لومبروزو، حد ميعرفش لومبروزو برضو؟!! أول واحد فكر في علاقة ملامح الوجه بالإجرام، واللي ابتكر نظرية (الإنسان المجرم) اللي مضمونها إن المجرم بتميزه عن غيره علامات جسدية واضحة وصريحة أغلبها في الوجه، أي نعم، معظم العلماء قالوا عنها نظرية تافهة وسطحية ده غير إنهم اتهموه بالجنون، وده بسبب إن النظرية ملهاش أي أساس علمي واضح، وإنها معتمدة على مشاهدات نظرية لعينات من المجرمين، لكن إيه المانع من التجربة طالما كل الطرق مسدودة؟ وإيه اللي هيضرنا لو مشينا ورا كلام الأخ لومبروزو وحاولنا نطبق نظريته على أرض الواقع؟ خصوصا بعد ما وافقنا بالإجماع على فكرة تطبيق المبادئ البيولوجية، النظرية بالرغم من إنها بدائية وغير منطقية لكنها تعتبر أولى نظريات المذهب البيولوجي، ومكانش ينفع تمر علينا مرور الكرام أبدًا.

سكت الدكتور عمرو ليبتلع ريقه، بينما ظهر على وجهي ياسمين وأحمد مزيج غريب من الإعجاب وعدم التصديق.

- بدأت أنفذ كلام (لومبروزو) بالحرف الواحد، حطيت صور المشتبه فيهم الخمسة قدامي وبدأت أدور على صفات معينة في شكل وشوشهم وجسمهم، صفات زي كبر حجم الأذن، بروز عظام الوجه والجبهة، الشفايف المنتفخة الغليظة، الأنف الطويل بدرجة واضحة، شكل الجبهة ودرجة انحدارها، طول الذراعين مقارنة بحجم الجسم، وغيرها من الصفات، الحقيقة

إنها كانت عملية صعبة ومعقدة جدًّا لأني كنت بدور على المشتبه فيه اللي عنده أكبر عدد من صفات المجرمين الشكلية اللي أقرَّها لومبروزو في نظريته، واللي بيوصل عددها لأكتر من عشرين صفة، ما بين صفات في شكل الوجه أو في المظهر العام للجسم، ومن بين المشتبه فيهم الخمسة كان الموظف اللي اسمه (محمد ناجح) هو أكتر واحد ظهرت عنده الصفات دي، الحقيقة أنا اترددت في استكمال المهمة خصوصًا إن الدليل اللي قدامي يعتبر ضعيف جدًّا ومحدش هيصدقه، لكن في النهاية قررت أكمَّل اللي بدأته برغم إني عارف إني هاكون لوحدي.

للمرة الأولى يتحدث أحمد منذ بدأ الحوار فيقول:

- طيب يا دكتور حتى بعد ما وصلت للشخص ده، إيه اللي ممكن تعمله عشان تثبت إنه الجاني فعلا؟ أنت أكيد كنت محتاج مساعدة المباحث برضو.

- والله يا أحمد أنا مكانش عندي خطة محددة، فكرة الاستعانة بالمباحث بالنسبالي كانت مستبعدة تماما، لأني كنت متأكد مليون في المية إن محدش هيصدقني ولا هيوافق إنه يساعدني، وبصراحة معاهم حق، الفكرة غريبة بالنسبالنا واحنا متخصصين في المجال ده فما بالك بالناس العادية.

- أمال حضرتك عملت إيه؟؟

- زي ما قلت لك، اشتغلت لوحدي، فكرت أروح لزوجة المشتبه فيه وأحاول أجمع أي معلومات منها.

ظهرت الدهشة على وجهي ياسمين وأحمد جليَّة، وسادت لحظات من الصمت قبل أن تقول ياسمين بشيء من الانبهار:

- وحضرتك عملت كدة فعلا؟

ابتسم الدكتور عمرو ابتسامة قصيرة ثم تابع:

- كانت خطوة مش سهلة أبدا ومحتاجة حذر كبير، المهم وصلت لها في النهاية وأقنعتها إني زميل جوزها في البنك، واتكلمت معاها فترة بسيطة جدا عن المشتبه فيه، وعرفت منها إنه غيَّر مكان شغله واتنقل من الفرع اللي كان بيشتغل فيه من سنين عشان يروح الفرع اللي فيه القتيلة، ودي كانت بالنسبالها خطوة غير مفهومة، وإنه من يوم ما اشتغل في الفرع الجديد وهو أحواله متغيرة بدون سبب محدد، علطول منطوي ومكتئب وشايل الهم، دي أهم نقطة طلعت بيها من الحوار معاها، ولما خلصت كلامي وقمت عشان أمشي لمحت حاجة غريبة شوية، حاجة مكنتش مديها اهتمام ولا معتقد إن وجودها له أي معنى، وعمري ما كنت أتخيل إن الحاجة البسيطة دي هتكون مفتاح لحل لغز الجريمة اللي تعتبر من أغرب الجرايم في تاريخ مصر.

وصل تركيز ياسمين وأحمد إلى ذروته وبدا عليهما الاهتمام والإنصات التام، فأردف الدكتور عمرو وهو يضغط على حروفه ليوحي بأهمية ما يقول:

- المشتبه فيه كان بيستعمل برفان اسمه (NIGHTS)، برفان مشهور وغالي جدا، الصدفة العجيبة إني كان عندي نفس البرفان ده وخلص من فترة، لحسن الحظ كانت لسة عندي إزازة البرفان ومكنتش رميتها، والإزازة دي مكتوب على ضهرها كل المكونات اللي اتصنع منها البرفان بالتفصيل، المكونات دي كان منها مكونات طبيعية زي الزيوت المستخرجة من الزهور وأخشاب الصندل، بالإضافة لمركبات كيميائية مضافة على المكونات الطبيعية

دي زي حمض الكربوليك والإندول، طبعا أنا معنديش أي خلفية عن طبيعة المكونات الكيميائية أو طرق اكتشافها، لكن خطر ببالي إنه ممكن يتم الاستعانة بخبراء كيميائيين عشان يفحصوا ملابس القتيلة ويتأكدوا من وجود أو عدم وجود المواد دي فيها، الخطوة دي مكنتش أقدر أعملها بنفسي فقررت إني أكلم العميد محسن وأفاتحه في الموضوع، الراجل بصراحة كان متعاون جدًّا برغم إني خذلته قبل كدة وقرر يعمل التحليل فورا، والنتايج كانت مثالية.

سكت للحظة ليرى تأثير كلماته على مستمعيه الذي بدا عليهما الاهتمام البالغ والترقب، ثم تابع:

- الفحص اللي اتعمل على ملابس الضحية المتحفظ عليها أثبت وجود بقايا من مادة الإندول وحمض الكربوليك على جزء كبير منها وبالذات في منطقة الضهر، وده بيثبت إن المتهم اتعرض للضحية من الخلف وكتم نفسها قبل ما يقوم بعملية الدبح، ود اللي خلاها لزقت فيه بالشكل ده، طبعا التفسير ده كان غير كافي، لأنها ممكن تكون احتكت بيه بصورة غير مباشرة أو بدون قصد، عشان كدة طلبنا من الأطباء الشرعيين عمل نفس التحليلات على منطقة الجرح، لحسن الحظ الجثة كانت لسة محفوظة في تلاجة المشرحة، وكانت النتيجة هيه وجود نفس المواد دي على رقبة الضحية بصورة واضحة، المتهم كان متعود يحط البرفان ده كل يوم (حسب أقوال مراته)، وواضح إنه كان بيحط منه على هدومه وعلى إيده كمان، وبرغم إن مفيش أي بصمات على جسم الضحية أو في مسرح الجريمة، واللي من الواضح جدا إن المتهم قدر يخفيها ببراعة، لكنه مقدرش يخفي آثار البرفان اللي اتنقلت من ضهر إيده لمكان

الجرح، وطبعا لأن العطر أصلي ومركز جدا؛ فضلت آثاره على جسم الضحية وهدومها كل الفترة دي، كدة بقى قدامنا دليل مادي أخيرًا، وبناءً عليه أصدرت النيابة الأمر بالقبض على المتهم، طبعا بعد ما يفوق من الغيبوبة اللي هو فيها.

ركزت ياسمين بصرها على وجه الدكتور عمرو بإعجاب، كان ما فعله يبدو لها عملًا بطوليًّا يُحتذى به، بينما بدا أن أحمد يحتاج لبعض التفسيرات، فبادر بسؤال الدكتور عمرو بشك:

- طيب وإيه الدافع يا دكتور؟ قدرت تعرفه؟؟

- بصراحة أنا مكانش ليا أي دور في الموضوع ده، لكن المباحث بعد ما اتأكدت من هوية الجاني شكَّلت فريق كامل لبحث النقطة دي بالذات، الفريق ده فشل تماما في إيجاد أي دليل ممكن يوضح الدافع الحقيقي للجريمة، زي سجلات مكالماته مثلا أو رسايله على الموبايل أو حتى حسابه على الفيسبوك، بالإضافة لأن الاستجواب المفصل اللي عملته المباحث لزوجة المتهم ولزمايله في الشغل ما أسفرش عن أي نتيجة إيجابية، وده اللي خلاهم بعد فترة يوصلوا لحالة من اليأس وفقدان الأمل، لدرجة إنهم استقروا على توجيه الاتهامات للجاني بناءً على الأدلة المادية اللي بين إيديهم بغض النظر عن فكرة الدافع، وكانت القضية ماشية في الطريق ده فعلا لكن فجأة حصل تطور مفاجئ للأحداث.

عاد الانتباه والترقب مرة أخرى إلى وجوه المستمعين، فأكمل الدكتور عمرو حديثه:

- والد القتيلة بما إنه مساعد أول لوزير الداخلية، وقبل كدة كان ظابط شرطة، كان عنده شك كبير إن الجريمة دي هدفها الحقيقي هو الانتقام منه، أكيد حد زيه له أعداء كتير ودي حاجة مش غريبة على المهنة دي، السيد مساعد الوزير بنفسه أمر بعمل بحث مفصل عن تاريخ عيلة الجاني وقرايبه لحد الدرجة الرابعة، طبعا دي كانت حاجة سهلة جدا والبيان المطلوب كان جاهز بعد ساعة بالظبط من طلبه، المفاجأة كانت إن عم المتهم هو (إبراهيم ناجح)، الإرهابي اللي اتقبض عليه من أكتر من عشرين سنة بتهمة الانضمام لجماعة إرهابية وارتكاب أعمال عنف وجرايم قتل لعدد كبير من أهم الشخصيات في البلد، أنتم كدة مش محتاجين أقول لكم إن والد الضحية هو الظابط اللي قبض على (إبراهيم) وكان السبب في وصوله لحبل الشنقة، من الواضح جدا إن (محمد ناجح) كان على صلة وثيقة بعمه وإنه قدر يفهمه إنه برئ وإن كل التهم دي اتلفقت له ظلم، وفضلت الأفكار دي موجودة في عقل (محمد) ومقدرش يتخلص منها بعد كل السنين دي، لحد ما اكتشف بالصدفة إن فيه موظفة جديدة في فرع تاني اسمها مش غريب عليه، وكان سهل جدًّا إنه يعمل تحريات عنها من أي موظف في الفرع ده عشان يعرف إن والدها رتبة كبيرة في الداخلية، ساعتها اتأكدت شكوكه وقرر إنه لازم ياخد بتاره، وبدأ أول خطوة في خطته لما اتنقل للفرع اللي فيه القتيلة عشان يبقى قريب منها ويقدر يعرف تحركاتها بالتفصيل، لحد ما انتهز الفرصة المناسبة وضرب ضربته.

تعبيرات غريبة كانت مرسومة على وجهي ياسمين وأحمد، مزيج غريب من الإعجاب والسعادة والصدمة، الإعجاب بجرأة الدكتور عمرو وإقدامه

وتصميمه، والسعادة لحل تلك الجريمة التي كانت سببًا في حيرتهم لفترة طويلة، والصدمة من كمية الحقد والكراهية لدى الجاني والتي تسببت في ضياع فتاة بريئة ليس لها أي ذنب، وضياعه هو وأسرته للأبد كذلك.

لحظات من الصمت الواجم تمرُّ، يقطعها صوت الدكتور عمرو المرح:

- المهم بقى، الداخلية عاملة لنا حفلة تكريم يوم الخميس الجاي كنوع من الشكر على مجهودنا، وهتكلم فيها عن الشغل اللي عملناه في القضية بالتفصيل، حاجة زي ندوة كدة، أنا شايف إنها فرصة كويسة عشان نوثق اللي حصل ده، والتوثيق ده ممكن يفيد في حل أي جريمة تحصل بعد كدة ويكون ليها نفس المعطيات.

أومأ أحمد برأسه متفهمًا، بينما لم تستطع ياسمين أن تسيطر على سعادتها التي طغت على كل خلجة من خلجاتها ورسمت على شفتيها ابتسامة عذبة واسعة.

نظرة الامتنان في عين الدكتور عمرو تظهر مرة أخرى قبل أن يقول:

- أنا اتشرفت بالشغل معاكم يا جماعة، أنا عمري في حياتي ما افتخرت بأي إنجاز حققته، لكن أنا دلوقتي بفتخر إنكم تلامذتي، وأكيد لولا مساعدتكم ليا طول الفترة اللي فاتت مكانش ممكن أوصل لأي نتيجة، والنجاح اللي أنا حققته ده أنتم مشتركين معايا فيه بنفس النسبة.

تمر لحظات من الصمت والابتسامات على الوجوه تتسع أكثر فأكثر، فيردف:

- هستناكم الخميس الجاي إن شاء الله.

تابع أحمد قيادة سيارته بعينين خاويتين شاردتين غير مبالٍ بالطريق المزدحم أمامه، مشاعر متضاربة تعصف به وتجعله يستغرق في تفكير عميق، إحساس عارم بالإعجاب بما فعله الدكتور عمرو واستطاع من خلاله أن يصل لحل هذه القضية المعقدة، كان ذلك مذهلًا بحق، كل ذلك الإصرار والتركيز على تحقيق الهدف على الرغم من استحالة المهمة واندثار الأمل، وكل تلك المثابرة والقدرة المستمرة على إيجاد الحلول وعدم الاستسلام لليأس، كان من الطبيعي جدا أن يكون النجاح حليفه لأنه سعى إليه بصدق ولم يعجز، على الرغم من عدم وجود أي ضغوط ترغمه على الاستمرار في التحقيق وحيدًا وتحمَّل المخاطرة، ولكنها تلك الرغبة الداخلية التي ترفض أن تنساق وراء مشاعر الإحباط والتخاذل، من المؤكد أنه أكثر الناس سعادة بالوصول لتلك النتيجة المبهرة، وحتى لو لم يحصل على التكريم المناسب، تكفيه لذة الانتصار التي يشعر بها الآن عن أي تكريم.

على الجانب الآخر، يقف هو أمام أحلامه كلها مكتوف الأيدي قليل الحيلة، بدون أن يقوى على تحقيقها أو ينال حتى شرف المحاولة، كل ما استطاع فعله هو الهرب، وسيلة الضعفاء الجبناء الذين لم يعتادوا على المواجهة، ولا يمتلكون أي قدر من الثقة بالنفس، على الرغم من أن ذلك الحلم هو كل ما تمنَّاه يوما، ولكن لم يكن نيل المطالب بالتمنِّي مع الأسف، هو لم يبذل أي

مجهود يذكر لتحقيق آماله، على الرغم من اقترابها الشديد منه واكتفى بالمواجهة صامتًا، فكانت النتيجة الحتمية هي أن يراقبها وهي تضيع من بين يديه للأبد.

ها هي أحلامه كلها تجلس بجانبه بعدما طلب منه الدكتور عمرو أن يقلّها للمنزل، على بعد سنتيمترات معدودة ليس إلا، من المؤلم حقًّا أن تكون أحلامك بهذا القرب ولا تستطيع أن تلمسها حتى، ما حجة الصمت الآن؟ الخجل؟ لم يعد يشعر به إطلاقًا، وحلَّت محله تلك الغصة الخانقة في حلقه، الخوف؟؟ من أي شيء وعلى أي شيء؟ هي لم تعد زميلته بعد الآن، أيام معدودة وسيختفي من حياتها للأبد فما الضير إذن من محاولة أخيرة، على أسوأ الظروف ستقوم بصدِّه أو توجيه بعض العبارات الجارحة له، لن يكون ذلك أقسى عليه مما يشعر به الآن.

يسمع فجأة تلك الموسيقى المميزة تصدر من مذياع السيارة، للمرة الأولى منذ بدأ القيادة ينتبه إلى أن المذياع يعمل بكفاءة بعكس عادته، ثم ينبعث فجأة ذلك الصوت الحالم شديد العذوبة:

..... طير بينا يا قلبي ولا تقوليش.. السكة منين..

تداعب الأغنية مشاعره الجارفة الدفينة، بينما تظهر ابتسامة سخرية على وجه ياسمين تتبعها ضحكة تهكم قصيرة:

- فيه حاجة؟

يسألها بصوت خفيض.

- لا أبدا، بس أغنية مش مناسبة للموقف أبدا.

ترد بشيء من العفوية والمرح، يراوده فجأة إحساس عارم بالغيظ، ما يحدث ليس عادلا على الإطلاق، ذلك الطوفان الهائج بداخله وتلك اللامبالاة التي تبدو عليها، الأمر لم يعد يحتمل مزيدًا من السكوت:

- مين اللي قال كدة؟

يرد عليها فجأة بلهجة ثابتة وبصوت غريب قليلًا، وبدون أن يحول بصره إليها، تتلاشى ابتسامتها رويدًا رويدًا ثم ترمقه بنظرة متسائلة، فيتابع الحديث وهو على الوضعية نفسها:

- قولي لي يا ياسمين، عمرك حسيتِ إن فيه حد معين بتفكري فيه علطول؟ بتقضي الساعات وأنتِ بتحاولي تفتكري كل الكلام اللي قاله وقاله ازاي؟ تعبيرات وشه لما بيضحك أو يزعل أو يتضايق؟ قلبك بيرفرف لمجرد إنك تشوفيه برغم إنه مش حاسس بوجودك أصلا؟ بتستني اللحظة اللي تتكلمي معاه فيها وتبصي في عنيه، وبتبقى اللحظة دي هي أهم حاجة حصلت لك طول اليوم؟

ملامح الصدمة والحيرة تبدو على وجه ياسمين التي تبتلع ريقها بصوت مسموع..

... روحي اللي تايهة شفتها.. إجري يا دنيا وقرَّبي.

- عمرك حسيتي إن فيه حد معين هو مصدر الفرحة في حياتك؟ برغم إنه مش بيعمل أي حاجة في حياتك غير إنه موجود فيها؟ عمرك حسيتي إن فيه حد بيوحشك برغم إنك شايفاه؟ حد مجرد إنك تسمعي اسمه بيخليكِ تنسي أي حاجة تانية؟ وبتبتسمي لمجرد إن سيرته بتيجي قدامك؟ وبتستني أي

حاجة من ريحته عشان تفكرك بيه؟ حد تحسي إن روحك عايزة تسيبك وتروح له؟ حد بتتمني إنه يفضل جمبك طول الوقت وبتحسي إنك غريبة من غيره؟

... قابلتها.. كلَّمتها.. مين كان يصدق والنبي؟؟!!

تهمُّ ياسمين بالتحدث بشيء من التردد فيقاطعها بلهجة حاسمة:

- عمرك حسيتي إن كل المشاعر الحلوة اللي جواكِ بقت ملك شخص واحد بس؟ وإنه مهما بعد عنك بتحسي بوجوده في كل حاجة حواليكِ؟ عمرك حبيتي حد لدرجة إنك تنسي كل همومك أول ما تشوفيه بيضحك؟ وإنك متبقيش عايزة أي حاجة من الدنيا غير إنك تفضلي تحبيه لأن دي الحاجة اللي مخلياكِ عايشة؟ عمرك بصيتي لحد كتير وهو مش واخد باله لأنه واحشك أوي، ومفيش أي حاجة تقدري تعمليها؟ وفضلتي تدقَّقِي في ملامحه كويس عشان تعرفي تفتكريها وأنتِ لوحدك؟ عمرك حبيتي حد الحب ده؟

تطرق ياسمين برأسها ويظهر الوجوم على ملامحها، وجهها يبدو كثمرة طماطم من فرط الخجل والانفعال.

... من يوم ورايح حبنا.. عمره ما هيغيب عننا.

يلتفت إليها للمرة الأولى وينظر في عينيها مباشرة ليردف:

- أنا بقى حبيت يا ياسمين، حبيتك، حبيت كل ثانية بشوفك فيها، حبيت نسمة الهوا اللي بتعدي من جمبك، حبيت الكلمة اللي بتقوليها وتنسيها، حبيت ضحكتك اللي بتنور قلبي، حبيت كل تفصيلة صغيرة من تفاصيلك، لبسك، طريقتك في الكلام، صوتك، نظرة عنيكِ، حبيتك وفضلت كتير مخبّي لكن خلاص مبقيتش قادر أعمل كدة، وصدقيني أنا مش عايز منك أي

حاجة، أنا عارف إنك مرتبطة وآسف لو كنت ضايقتك، بس أنا بجد كنت هتجنن لو مكنتش اتكلمت، أنا عايزك بس تعرفي إن دي حاجة مش بإيدي، وإنك حتى لو مش هتبقي من نصيبي، هيفضل وجودك في حياتي هو الفرحة الوحيدة اللي فرحتها من قلبي بجد، وهتفضلي أنتِ يا ياسمين، الوردة اللي بحضنها كل يوم قبل ما أنام.

لحظات ثقيلة من الصمت تمرّ، يراوده شعور عارم بالراحة على الرغم من كل شيء، ذلك الحمل الثقيل انزاح من على صدره أخيرًا، ولا يهم ما سيحدث الآن، على أيّة حال، هو لا ينتظر الرد.

أهو يحلم حقا أم أنها تحرَّك يديها الرقيقتين تجاه يده الممسكة بالمقود؟ جزء من الثانية يمر وكأنه دهرٌ، تلك اللحظة التاريخية يبدو فعلا أن الزمن قد توقف عندها، تضع يدها بالفعل على يده ثم تمسكها بقوة، وكأنها تتشبث بها، تتركز نظراته على يدها الممسكه بيده، وكأنه لا يصدق ما يرى، ثم ينظر إليها فيرى تلك الدموع تترقرق في عينيها كحبات اللؤلؤ، هل شعرت به أخيرًا؟ كل الشواهد تؤكد ذلك، تلك الابتسامة الواسعة على شفتيها وتلك النظرة التي لا يستطيع وصفها، يقبض على يدها بدوره وبقوة مبالغ فيها، وكأنه ينفث بتلك الحركة عن كل ما مر به في الماضي من آلام.

... ومن النهاردة لميت سنة.. أنت الحبيب والروح أنا.

يتوقف الطريق لحسن الحظ فيطلق العنان لنظراته، يشعر وكأنه يرى ذلك الوجه للمرة الأولى، الوجه لم يتغير ولكنه لم يعد كما كان بالنسبة له، صار قريبا إلى الدرجة التي طالما تمناها، وصارت هناك رابطة تجمعه بصاحبة الوجه التي

سكنت روحه، يتأملها كثيرا وكأنه يروي ظمأه من تلك الملامح، ثم يحرك يده الممسكة بيدها ليضعها على قلبه، يغلق عينيه وبداخله إحساس عارم بالاطمئنان والسكينة، إحساس كان يظن فيما مضى أنه لن يتذوقه أبدًا، يبتسم في وجهها بعذوبة ثم يردف:

- بحبك يا ياسمين، بحبك، مش عايز أبطل أقولها.

... طير بينا يا قلبي ولا تقوليش.. السكة منين.

يتحول لون الإشارة أخيرا إلى اللون الأخضر، فتسارع كل السيارات بالسير باستثناء واحدة، لم يعد يبالي من فيها بالمكان أو الوقت، وأصبح كل منهما منشغلا بتلك الابتسامة التي يراها على وجه الآخر وبنظرات الحب المطلة من عينيه، لحظات أصبح الحديث خلالها بلا معنى، وبلا قدرة حقيقية على التعبير، وبدا فيها ذلك الإحساس الطاغي بالقلوب أفصح من أي عبارات تُلقى أو كلمات تقال.

... ده حبيبي معايا متسألنيش.. رايحين على فين..

انتهت مراسم التكريم بذلك الحفل البسيط الذي أقامته وزارة الداخلية تقديرًا لجهود الدكتور عمرو ورفاقه في حل القضية، حملوا جميعًا شهادات التقدير الموقعة من الوزير نفسه واتجهوا لتعزية السيد مساعد الوزير الذي أبدى لهم كثيرًا من الامتنان على ما قدموه، ثم وقفوا لتبادل الحديث للحظات، قبل أن تبدأ فعاليات تلك الندوة التي سيحاضر فيها الدكتور عمرو، والتي سيقوم خلالها بشرح أهم مبادئ علم النفس الجنائي التي استعان بها مع فريقه للوصول للجاني.

كان أحمد أول من تكلم وعلى وجهه علت ابتسامة رضا واسعة:

- الحمد لله، أكتر حاجة فرحت بيها لما حسيت إن والد المجني عليها ارتاح بعد ما القاتل اتعرف، متهيألي دي الحاجة الوحيدة اللي ممكن تعوضه.

أومأ الدكتور عمرو برأسه موافقا ثم قال:

- فعلا، إحنا كنا مشغولين بالقضية جدًّا وفضلنا كتير ندور على حل، لكن في نفس الوقت احنا مش طرف في الجريمة، وأكيد عمرنا ما هنقدر نحس بالألم اللي هو حس بيه، ربنا يصبره.

تدخلت ياسمين في الحوار بحماسة موجهة حديثها للدكتور عمرو:

- هي الندوة هتبدأ إمتى يا دكتور؟ أنا مستنية الناس كلها تعرف الشغل اللي عملناه، شايف عدد الصحفيين قد إيه؟ واضح إنها هتكون قضية الموسم.

هز الدكتور عمرو كتفيه بمرح ثم أردف:

- الشهرة عاوزة مننا إيه بس!

أطلقت ياسمين ضحكة عالية وارتسمت ابتسامة واسعة على شفتَيْ أحمد، فَهُمَا لم يعتادا من الدكتور عمرو ذلك الأسلوب المستحدث في الدعابة، حاول أحمد أن يتحدث بقليل من الجدية:

- أظن حضرتك يا دكتور مش هتتكلم غير عن لومبروزو بس، وهتحاول تقنع الناس بإن نظريته سليمة!

سكت الدكتور عمرو للحظة بدا خلالها أنه يفكر بعمق، ثم هز رأسه نفيا وقال:

- لا خالص يا أحمد على فكرة، مش معنى إن نظرية لومبروزو نجحت وإننا قدرنا نوصل من خلالها للجاني إني مؤمن بصحتها، أنا لسة جوايا اعتقاد كامل بإن النظرية بدائية وصعب تعميمها، لكن الحكمة اللي قدرت أوصل لها من كل اللي حصل إنك لازم تحاول لآخر نفس ومتفقدش الأمل أبدًا، حتى لو الطريق قدامك صعب ومليان مخاطر وكل اللي حواليك هيعتبروك مجنون لو مشيت فيه، طالما ظهر الطريق يبقى لازم تمشي وتجرب ومتخافش، ونظرية لومبروزو بالنسبالي كانت الفرصة الأخيرة وقررت أستغلها، وتوفيق ربنا طبعا فوق كل شيء.

- ونعم بالله.

لحظات من السكون تمر قبل أن يتكلم أحمد مرة أخرى وهو يتابع تأثير حديثه على ملامح ياسمين:

- على فكرة يا جماعة، أنا سحبت طلب النقل اللي كنت قدمته لجامعة عين شمس، أنا شايف إني مستقر في مكاني ومفيش داعي للتغيير.

ظهرت السعادة واضحة على وجه ياسمين على الرغم من كل محاولاتها لإخفائها، وظهرت بدورها على وجه الدكتور عمرو الذي ربَت على كتف أحمد باعتزاز وقال:

- أيوة كدة، فرحتني والله، الموضوع ده كان مضايقني بس مكنتش حابب أتدخل لأنها حاجة تخصك أولًا وأخيرًا، بالتوفيق يا بطل.

- شكرا يا دكتور.

ردَّ أحمد وأطرق برأسه بشيء من الخجل.

تتسع ابتسامة ياسمين أكثر فأكثر ثم تقول:

- خبر حلو فعلا يا أحمد، بس أنا عندي خبر أحلى.

يحدِّق أحمد في وجهها بتساؤل، ويلتفت إليها الدكتور عمرو وعلى وجهه تظهر التعبيرات نفسها، فتتابع:

- أنا فسخت خطوبتي امبارح.

تتلاشى ابتسامة الدكتور عمرو سريعًا وتظهر على وجهه علامات الانزعاج الشديد، ثم يوجه حديثه لياسمين بجزع:

- ليه كدة بس؟ إيه اللي حصل؟ ده أنتم لسة في البداية، هو عمل..

لم يستكمل حديثه، فقد لفتت نظره تلك النظرة التي لمحها في عين ياسمين المثبتة على وجه أحمد، نظرة الحب الحالمة الواضحة وضوح الشمس، يلتفت إلى أحمد ليجد النظرة نفسها بحذافيرها في عينيه، وكأن كل منهما يقف أمام مرآة عاكسة، نظرة الهُيَام الصامتة في عيونهما تُثير دهشة الدكتور عمرو لبضع ثوانٍ، بضع ثوانٍ كانت كافية جدا بالنسبة له لكي يفهم حقيقة الأمر.

ابتسامة أبوية عذبة ترتسم على شفتيه، ثم يضع يدا فوق كتف أحمد والأخرى على كتف ياسمين ويقول:

- يعني معقولة الواحد يكون بيدرَّس علم نفس بقاله أكتر من خمسة وعشرين سنة، وعارف تقريبا كل النظريات العلمية في التحليل النفسي، ووزارة الداخلية نفسها بتستعين بيه عشان يحلل شخصية الشهود والمشتبه فيهم في أهم قضية موجودة على الساحة، وبعد كل دة يطلع معندوش فكرة عن نفسية الناس اللي بيشتغل معاهم، بذمتكم ينفع كدة؟؟

ضحك أحمد ضحكة قصيرة وخفضت ياسمين بصرها بخجل، ربَت الدكتور عمرو على كتفيهما ثم تابع بحب:

- ربنا يوفقكم.

مد أحمد يده ليُربِت على ظهر الدكتور عمرو بامتنان واعتزاز، بينما اكتفت ياسمين بتلك الابتسامة الخَجلى التي زادت وجهها جمالًا وإشراقًا.

ينادي منظم الندوة فجأة على الدكتور عمرو فيجيبه الأخير فورًا ثم يصعد للمنصة على عجل استعدادًا لبدء الحديث، يتتابع حلوس الحاضرين في أماكنهم، ويبدأ منظم الندوة إلقاء كلمة المقدمة، يستعدون جميعًا بحماسة

للاستماع لتفاصيل أهم قضية في تاريخ علم النفس الجنائي، تلك القضية التي ستأخذ بذلك العلم إلى مكان آخر وستجعله عاملًا مشتركًا في حلّ كل القضايا الغامضة المستعصية فيما بعد، يتابع أحمد وياسمين الحديث، وكلٌّ منهما يمسك يد الآخر، منتظرا ذلك المستقبل السعيد الذي سيجمعه قريبًا بمن يحب، آملا أن يحل محل أستاذه في المستقبل وأن يصل يوما ما لتلك المكانة.

- تمت -

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.